روايات غادة

غادة

انجيلا ستافورد

دموع الصباح

www.elromancia.com

مرمورية

حب

دار العلم للجميع
بيروت - لبنان

غـــادة

دموع الصباح

انجيلا ستافورد

اكتشفت ديلين، بعد فوات الأوان أن حبها القديم لم يمت.. خطوبتها من جديد لكليف واردن، قادتها دون قصد إلى تحت رحمة من كان السبب في تدميرها.. ولتعرف أنه السيد الآمر.. حتى بالنسبة لخطيبها.

ليلة صيفها الطويل كانت تنتهي دائماً بدموع الصباح فرجل التصميم، بول دارسي، جعلها تصرخ على الدوام: أين قلبي؟ فإلى أين المصير؟

وكيل التوزيع الوحيد في الكويت
الظمئي للنشر والتوزيع
تلفون ٣٧٢٧٨٩٩

www.elromancia.com

- ١ -

شبح الماضي

خف زحام السير كثيراً بعد الخروج من لندن، مما مكن كليف وارن من الارتياح خلف المقود.. واندست ديلين الى جانبه؛ فلف ذراعه بلطف حول كتفيها ليشدها الى جانبه.. وأخذ يتلاعب بخصلات شعرها الحريري الاسود.

- متعبة؟

ردت بصوت منخفض سليي.

- لا..

- متوترة؟

- قليلاً.

كان صعباً عليها أن تكون متوترة وهو الى جانبها.. فمعه كانت تحس بالامان والحماية.. قوته اعطتها الشجاعة لتواجه

أي شيء.. حتى مسألة لقاء عائلته.

- تحبيني؟

للحظات تأثير خشونة صوته جعلت قلبها يخفق بردة فعل تجاه صوت رجل آخر. لكنها اندست الى جانبه اكثر، وتركت هذا الاحساس يمر بسرعة. واجابت:

- اجل.

- وأنا أحبك كذلك.

ولدفء ذراعيه، كان سهلاً ان تماشيه في لهجته الخفيفة.

- صحيح؟

- أجل.. أحب إمرأة جملية.. شعرها كالحرير الاسود؛ ولها عينان زرقاوان جميلتان.

- اتمنى ان تجعلك سعيداً.

مدت يدها تسعى الى الذراع التي تلفها لتشبك اصابعها مع اصابعه.. كانت هذه حركة ذكرتها بشكل غريب بزمن آخر.. ورجل آخر. فسرت رجفة في جسدها.

- بردانة؟ هل أدير لك جهاز التدفئة؟

- لا.. أنا بخير هكذا. أحياناً يبدو لي انني اعرفك العمر كله بدلاً من شهر واحد... كليف، كنت أتمنى لو التقيتك قبل الآن. نظر اليها بسرعة، ثم اعاد اهتمامه الى الطريق:

- اتودين الحديث عن الماضي؟

حل صمت مشحون بعد سؤاله.. لكن ديلين لم تكن تحس به وهي تنظر الى وجهه القوي الوسيم. والذي يذكرها احياناً ببول. وكذلك كان يذكرها به مئات الرجال الذين تشابه عظام وجوههم وجهه. لكن الشبه ينتهي عند عظام الوجه فقط. شعر كليف بني، وليس ذهبياً. وهو في الواحدة والثلاثين يفتقد لخطوط الشخصية التي تحدد قسمات بول حول عينيه وفمه. كما ان كليف لا يمتلك تلك الجاذبية الفجة التي جذبت ديلين من أول نظرة الى بول. كل ما عليها ان تفعل، أن تغمض عينيها لتحس بجسده القاسي على جسدها وبيديه تداعبانها بقسوة.

- وماذا هناك أكلمك عنه.. لقد رماني كما يرمي الحجر بعيداً. مرارة مؤلمة ظنت انها نسيتها، ولم يكن من المريح ان تدعى ان كرامتها وحدها قاست الضربة. ولن تستطيع الادعاء انه استغلها.. فلقد سارت الى فخه وعينيها مفتحة ولم تكن تتحكم أن علاقتهما ستستمر اسبوعاً.. لكن، بالنسبة لها كانت تعني كل شيء.

عاد صوته الاجش الغاوي الى رأسها وهو يقول لها كلمات قال لها منذ ستة أشهر.

- لست بادى بالكلام حبيبتي.. بل افضل الفعل.

كلامه الصريح لم يزعجها، بول دارسي لم يكن يومها يقول

سوى ما كانت تفكر به هي طالما كانت على بعد لمسة منه والتفتت الى كليف:

ـ هل قلت لك أنه طلب مني الذهاب معه حين سافر؟ كدت اوافق... شدني الاغراء كثيراً.. لكنني بقيت افكر بعملي وشقتي.. ايمكن ان تتصور الورطة التي كانت ستصيبني لو ذهبت معه وزهق مني ثم رماني في مكان ما بين هنا واسكتلندة، أو حيث تقع مزرعته، هذا اذ كان له مزرعة؟

التفاصيل يومها لم تكن تهم.. كانت تعرف ان بول كان يقضي عطلة في لندن.. وأن المنزل الصغير في أحد ضواحيها كان ملكاً لصديق له.. مع ذلك، وبكل غباء، لم تفكر بأن ما بينهما هو مجرد علاقة عطلة ستنتهي دون سابق انذار حين يسافر. كانت واثقة ان تلك العلاقة ستستمر لذلك لم تسأله شيئاً عنه. فالكلام كان في آخر اهتماماتهما فوسيلة اتصاله الفريدة كانت اكثر من مرضية لها. فيما بعد كانت مسرورة انها لم تعرف عنه شيئاً سوى اسمه وبعض الدلائل الغامضة على امتلاكه مزرعة مواشي في الهايلندرز.

وقال لها كليف:

ـ لكنك لم تذهبي معه.

خرجت منها تنهيدة يائسة:

ـ لا.. لماذا أخبرك بكل هذا؟

ـ الاعتراف جيد للروح.

إبتعدت عن مدى ذراعه.

ـ أنا.. لا استطيع.. لماذا لم تسألني عنه من قبل كليف؟ اسمه؟ كيف التقينا؟ ماذا حدث؟

ـ لأنني اعرف انك يوماً ستلقي بي وتخبريني القصة كلها.

نظرت الى السوليتير الالماس في يدها:

ـ لكنني أثق بك.

خاتم الخطوبة دليل قاطع على ثقتها به لقد وعدت أن تضع قلبها بين يديه. صحيح انه كان محطماً حين التقت به لكنه تمكن من جمع قطاعه مرة اخرى ليعيده كاملاً. واعطاها الكثير حتى لم تعد واثقة أنها تستطيع رد فضائله عليه وسألت:

ـ الا يزعجك وجود شخص آخر في حياتي قبلك؟

ـ لا.. فما من إمرأة تصل لسن الخامسة والعشرين دون أن يصاب قلبها باذى.. وتقبلت هذا حين التقيتك.

مد يده عبر المقعد ليمسك بيدها، فتغرست باصابعه القوية الدافئة.. لمسته جعلت بشرتها تقشعرّ. لكنها لم تعد تثق بمثل هذا الاحساس.. تعليقه أثار فضولها:

ـ وماذا عن قلبك كليف؟ هل اصيب بأذى يوماً؟

صوته ناعم وهادىء.. لا يحمل أي دليل على شوق أو حزن.. وخرجت كلماته كأنها مزحة:

- اكثر من نصف دزينة من المرات.

- كن جاداً كليف.

- لكنني جاد، لقد اصبح صعباً علي الحكم على مشاعري القديمة منذ التقيتك... ومن هذا المنظار تبدو لي كلها مجرد امتنان... هل يجيب هذا على سؤالك؟

- أجل.. أعتقد هذا

- ثم.. لو أنك التقيتني أولاً، ربما ما كنت لاحظتني وغمز لها ممازحاً فسارعت الى النكران:

- هذا غير صحيح. فأنت رجل وسيم جداً، كليف واردن. اية إمرأة قد تلحظك.

صوت صغير عميق صحح لها تصريحها: إلا اذا كان بيل داري موجوداً. وكأنه قرأ افكارها فتابع:

- أو ربما كنت ساخسرك أمامه. لكن «ربما» ليس لها علاقة بالحاضر أو كيف حدث.. وليس هناك أي مبرر لقول «اذا».

- بلى.. هناك مبرر.. ماذا اذا لم التقى بك ابداً؟ لقد كنت طيباً جداً «لي» «ولأجلي» و«معي» حتى أنني أحياناً أتساءل ماذا فعلت لأستحق شخصاً مثلك متفهم وصبور.

- حين التقيتك ذكرتني بقطة صغيرة ساردة التقيتها مرة.. كنت خائفة ومذعورة... صحيح ان هذا لم يكن يبدو عليك.

ولا رفعت ظهرك، ولا حسست عليّ كي تدعي انك لست خائفة مذعورة، كما فعلت تلك القطعة السوداء. كم مرة خذلتني قبل ان اقنعك بالخروج معي؟

- دزينة مرات على الاقل. مع انني لا ادري لماذا ازعجت نفسك. وتنهدت.. فترك يدها ثم مد يده لينزل مردّ الشمس أمامها. المرأة خلف المرد عكس لها صورتها، وشعر أسود من منتصف الليل يحيط بوجهها عينان زرقاوان كالبحر حدودهما رموش ناعمة طويلة توليقه صارمة من القسمات زادها جمالاً احمرار بشرتها من شمس الصيف. وقال:

- هذه المرأة في المرآة يجب ان ترد على سؤالك.. حين التقيتك كان حول عينيها دوائر سوداء وفمها الجميل نسي ما هو الابتسام. فانظري ما فعل الحب بها.

- مرّ في خاطرها أن الحب كذلك هو من صنع تلك الدوائر السوداء والفم المتجهم.. لكنها لم تقل شيئاً.. فاكمل:

- وعدتك أن لا استعجلك الزواج ديلين.. ولن افعل.. ستكون لنا خطبة طويلة.. ومغازلات قديمة الطراز.. حيث اتمكن من أفكارك بالهدايا والزهور واشعار الحب.

وسينتهي هذا كله في احتفال زفاف ضخم، سيجعل امي سعيدة.. ستعجبك امي دون شك.

- أرجو أن اعجبها أنا.

- بل ستحبك.. اتعلمين أنني كدت لا احصل على هذه العطلة، لأن شريكي في مكتب المحاماة عاد لتوه من عطلته، ولم يكن من المقرر ان تحل عطلتي قبل الصيف...

وأنا كذلك، فالمصنع الذي اعمل سكرتيرة فيه يعاني من نقص في السكرتيرات إما بسبب الزواج او المرض.. والصدفة وحدها جعلت العطلتان تلتقيان.

- وأنا اردتك ان تتعرفي الى عائلتي اريدك ان تفكري بها كعائلة لك.

- لم تخبرني الكثير عن عائلتك هناك امك، الارملة وشقيقك.

- لا يوجد لي سوى أمي وأخي.. لكننا كنا دوماً قريبون من بعضنا أمي، سوزان، إمرأة عظيمة، لطيفة دافئة ومحبة.

- لا بد أنك ورثت كل هذا عنها.

- لست ادري فوالدي كان عظيماً كذلك.. تقول أمي أنه ألطف أهل القرية. حين تحتاج اية جمعية خيرية لجمع المال كانوا يتوقفون في مزرعته اولاً. لم يكن يستطع قول «لا».. ولو استطاع لاصبح مليونيرا.. مع أنه لم يتركنا مفلسين.

في الاسابيع الاخيرة فقط بدأت ديلين تدرك أنها مخطوبة لرجل ثري نسبياً. فمكتب المحاماة الذي يملكه، ويديره له

أحد أشهر المحامين، ينتج دخلاً يمكنه من لعب دور الغني العابث لكن كليف اختار العمل، هو متعلق به.

- وماذا عن ميغان غلين؟ هل تربيت هناك!

- لا.. مع أننا كنا نقضي وقتاً طويلاً هناك.. بد يفضلها، بينما افضل أنا حياة المدنية. مثل والدي.

- بد هو شقيقك؟

- أجل.. أنه أخي الاكبر. ومن الجيد أن «ميغان غلين» ملك له.. فتلك الحياة تناسبه.. ويجب أن أحذرك من «بد»

- تحذرني؟

أحست بقشعريرة خوف تتراقص على ظهرها... رد عليها:

- سيحاول مغازلتك.

- لماذا؟.. اعني انني خطيبتك. وبالتأكيد لن...

ضحك كليف عالياً وقاطعها:

- أول كل شيء «بد» له عين ثاقبة ترى المرأة الجميلة بين حشد من الناس.. إضافة الى أنه دائماً يذهل النساء بفتنته. وبمعرفتي به، أي تحرك نحوك سيكون له هدفين: اولهما ليجربك. يرى اذا كانت خطية أخيه صادقة مخلصة.

- والثاني؟

- السبب الثاني؟ سيكون للاستمتاع فقط.

- وماذا يفترض ان افعل؟

- لا استطيع قول ما يجب ان تفعلي. . عليّ تحذيرك فقط. وأنا اثق انك قادرة على التعامل معه ديلين. اطمأنت لثقته بها قليلاً. . . وعلّقت ساخرة:

- هذا يعني أنه غير متزوج؟

- «بد» هو الثعلب القذر الاصلي. ماكر مخادع، وخبير ولا يعلق مطلقاً في فخ الزواج. . مشكلته أن أي شيء بعيد عن مناله يعتبره حصرم حامض. بالنسبة للنساء هو أما ان يأخذ أو يترك وغالباً ما يأخذ. . ثم يترك.

ضحك كليف لوضعه هذا. لكن ديلين كانت تفكر بقوله الاول:

- كليف. . أنظر الى الزواج على انه فخ؟

اختفت البسمة عن شفتيه.

- لا. . كنت . . . اكرر كلام اخي عن الزواج. . لكن هذا الكلام لا ينصفه. . اظنه يتوق لزوجة وأولاد، هذا إذاً استطاع ان يجد الفتاة المناسبة.

- أنت حقاً تحبه. . اليس كذلك؟

- كان مثلي الاعلى لسنوات طوال. صحيح أن سمعته ملوثة، لكنه شخص مرموق ينظر اليه. وستعرفين ما أعني حين تلتقي به. استرخت ثانية تحت ذراعه. . لا سبب لها ان

لا تصدقه. ولو ان اخاه بنصف لطفه، فستحبه لا شك. وسألته:

- ماذا قلت لعائلتك عني؟

- لا شيء.

- لا شيء؟

ارتسمت على وجهه بسمة كسولة.

- اعرف أمي. . فلو قلت لها انني ساجيء بعروسي ستدعو جميع من في القرية للاحتفاء بنا. وهذا أمر مبكر لنا. لذا قلت لها أنني ساجيء بصديقة. وبهذا ستحصلان على بضعة أيام للتعارف قبل حصول حفلة الخطبة المحتمة الحصول.

ابطأ السيارة، ثم استدار في طريق فرعي، حتى وصل بوابة حديدية وأعلن.

"- نحن الان ضمن اراضي مزرعة ميغان غلين.

نظرت ديلين الى البوابة الحديدية البسيطة المدهونة بالابيض لوحة صغيرة فوقها تعلق «مزرعة ميغان غلين. . . املاك خاصة. . . ممنوع الدخول»

- انها لافتة غير مرحبة.

- المدخل الرئيسي يبعد بضعة أميال بعد. وهذا الطريق مجرد ممر مختصر الى المنزل، يمر عبر الاشجار انتظري لافتح

البوابة.

فتحت ديلين زجاج النافذة لتتناهى اليها روائح التفاح والاشجار المثمرة. وبدت وراء البوابة التي فتحها كليف صفوف منظمة من اشجار صغيرة، حين ادخل السيارة بينها وتوقف ليقفل الباب ثانية، نظرت ديلين الى ثمرات التفاح الحمراء القاتمة تتدلى من اغصانها.. ومن بعيد لمحت صفوفاً اخرى من اشجار الليمون البرتقالية الثمر.

- انها من نوع الماندرين، طعمها الغريب يجعلها ألذ شراب والدتي تستخدم عصيرها بدلاً من الحامض، وهي تنضج في نيسان لذا ستقطف قريباً. أما التفاح فتصنع منه أمي المربى، ونضج منذ مدة ولم يبق منه سوى لاستخدام المنزل.

- لفتى المدينة.. تبدو معلوماتك رائعة حول الاشجار المثمرة..

- اليس من المفترض بكل ريفي أن يكون خبيراً بالفاكهة؟

- يمكن ان انتقي من مختلف الانواع أفضلها.. لكن ذات الطعم الحامض منها غريبة عليّ.

- سنحاول تعلميك وأنت هنا.

- انظر.. اليست هذه زهرة على نفس الغصن الذي يحمل الثمار؟

- أجل.. وستتلقين أول درس لك عن هذه الثمار..

ثمار البرتقال والغرابيفروت تأخذ إثنا عشر شهراً لتنضج.. عكس التفاح والفواكه الاخرى التي تنضج خلال ثلاث الى أربعة أشهر.. لذلك تحتوي الشجرة على الثمرة الناضجة وزهرة السنة القادمة. كما ان ثمارها لا تنضج بعد أن تقطف، لذلك لا يمكن قطفها وهي خضراء لشحنها الى المدن اذ يجب ان تنضج فوق شجرها.

ضحكت ديلين على جهلها:

- وهذا ما لم أكن اعرفه أيضاً.

- في الغد سآخذك في جولة كاملة على اشجار المزرعة كلها واعوض جهلك. ما رأيك؟

- ساحب هذا.

وهما يستديراً عند منعطف، تغير المنظر من الاشجار المثمرة الى الحقول الواسعة. من بعيد شاهدت ديلين السياج الابيض والعشب الاخضر خلف البرسيم المزروع فوق المراعي المترامية كانت الشمس تشع فوق الجياد اللامعة الجلد الراعية. ووقف مهر ملون القدمين الى جانب امه.. فسألت ديلين بدهشة:

- اتربون الخيل كذلك؟

- أجل.. جياد اصيلة للسباق.. الم اذكر لك هذا؟

- لا.. اليست جميلة؟

- اتركبين الخيل؟

- في كل مناسبة احصل عليها.. وهذا ليس بالكثير..

- يوجد هنا اكثر مما يكفي من جياد.. بامكانك ركوب جواد مختلف كل يوم اذا اردت.

فابتسمت:

- هذا المكان يبدو لي كالفردوس.

- وسنبقى معزولان فيها لأسبوعين.

اخذت سقوف الاسطبلات تبدو لهما، مباني بيضاء لامعة تتناسب مع بياض السياج فقالت حالمة:

- ولن امانع مطلقاً.

- وأنا كذلك لن امانع. ليس وأنا اقضيها معك.. سأكون مشغولاً بالنظر اليك، حتى انني قد لا الاحظ الانوار البراقة.

دون النظر إلى واقع أنه يقود، مالت اليه تعانقه.. وكانت هذه أول دلالة على التقارب بينهما.. فيما مضى كانت أكثر وقاحة وجرأة.. لكن هذا رجل آخر..

ترك كليف السيارة تتدحرج ببطء وهو يشدها استجابه لعناقها... وكان لرقته أن ترسل احاسيس مضطربة تطوف في عروقها... أنه يعد بنوع آخر مختلف من الرضى.. أقل خطراً بكثير مما عرفته ودمرها. وهمست في اذانه:

- احبك!

بدأ متردداً.. ثم دفعتها ذراعاه الى الخلف نحو مقعدها. وقال:

- عليك اذن أن تتركيني ارى طريقي قبل ان اصطدم بشيء.

- انت محق.

لكنها عادت للالتصاق به ووضعتْ رأسها على كتفه خائفة بالاحساس الذي أثاره عناقه داخلها. وسرعان ما ضحك، فرفعت رأسها إليه:

- لم تضحك؟

- تبدين كقطة اكلت الزبدة. وملأت وجهها.

- لأنني سعيدة. لم أكن أفكر انني سأحس بالسعادة ثانية وهو يدير السيارة نحو الطريق الرئيسي، كان النبات المتعرش يتدلى من اغصان الشجر المرتفع يغطي منظر البيت. واتسعت عيناها ذهولاً حين ارتفع الستار.

منزل ضخم من طابقين ارتفع امامها... قمة السقف المريبة اكملت لون الجدران المزخرفة بنقوش الجص.. القناطر القديمة الطراز والشرفات المسقوفة تتحدث عن تصميم اسكتلندي تقليدي.. القناطر الخارجية تقود الى فناء في وسطه تتراقص الماء من نافورته، وتتابع القناطر لتصل الى المدخل الرئيسي. حديد اسود مجدول مخرم وكأنه الحرير المخرم، يحد

الشرفات في الطابق الاعلى، ويعلوه اطار حديدي مقنطر. قال لها ساخراً.

- هل ستجلسين في السيارة تظهرين الاعجاب؟ ام ستنتزلي لتدخلي؟

مشدوهة بعظمة المنزل، لم تكن قد أحست أن كليف أوقف السيارة واقفاً المحرك.. فأقبلت لسؤاله واجابت:

- كان يجب أن تحذرني بأنه مؤثراً هكذا.

- اظن انني نسيت الى أن ظهر لي في عينيك. وخرج من السيارة ليستدير امامها ويفتح لذيلين الباب.

- لكنه مجرد منزل ديلين. اربعة جدران وسقف لكن هذا، أكثر من أربعة جدران وسقف.. مع أنها لم ترغب في الجدال... فالمنزل بالرغم من فخامته وعتقه لم يكن مخيفاً. كان هناك وفرة من النبات المتعرش المليء بالزهر الازرق والابيض يزدحم فوق الجدران المواجهة للفناء، حيث تتلاعب المياه من نافورة البركة لتعيد اصواتاً جميلة، تكاد تخفي وقع اقدامهما، على الممر المرصوف.. خلف ممر مقنطراً آخر، شاعدت ديلين لمعان المياه الزرقاء في بركة سباحة. وقادها كليف الى أبواب ضخمة منحوتة. أنفتحت الابواب لتكشف ردهة داخلية منقوشة السقف.

باب زجاجي آخر، يتيح الدخول الى الردهة من جهة

الشرفة المسقوفة من جهة البركة... والتوى السلم المفتوح بدرابزينه المنقوشة بأناقة من الردهة الى الطابق الاعلى. والى الامام ممر مقنطر آخر يقود الى غرفة الجلوس حيث دخل كليف.. وقال:

- أيمكن ان تنتظري هنا؟ أمي على الارجح في المطبخ ولا اظنها ستشكرني لو أخذتك اليها وهي تتشاجر مع الطباخة. واذا كنت عطشى، فسآتي معي ببعض العصير.

- سأحب هذا.. شكراً لك.

- لا تهربي.. امي ستحبك.

للغرابة أكتشفت ديلين أنها لا تشعر بالتوتر لقرب لقائها مع أمه.. ربما طمأنها جو المنزل الدافىء المريح... وانطباعها عن المكان، انطباع صلابة وأمان مع ارتياح واسترخاء.

* * *

- ٢ -

تحت رحمة الذئب

صفق باب في الردهة وارتجّ الزجاج ليدل على أن الباب هو لجهة البركة. استدارت ديلين نحو الممر المقنطر على صوت وقع اقدام بحذاء بنعل عالي الجوانب فوق البلاط.. ودخل رجل طويل عريض الكتفين الى غرفة الجلوس.. وبدت حركة لاواعية من ديلين، لتكشف له وجودها.

في الحال، سرت موجة صدمة عبر عظامها حين رأت تلك القسمات القاسية الصارمة. زوج من العيون الصفراء لمعت وكأنها لسان مزدوج لصاعقه.. لا بد أن ضحيتها تلعب لعبة غريبة... وارتفعت قبعة الرجل عن رأسه، وانتقلت من يد الى يد الى الكرسي.. الشعر الاشقر المختلط بالبني كان لا شك دليل تعرضه للشمس. وتبع هذا لمعان

أبيض لابتسامته...

- بول!

الاسم أنتزع انتزاعاً من بين الكذب والواقع.. الذي امسك بعناقها وجاءهاالرد بصوت منخفض وكأنه المداعبة على اذنيها:

- غيرت رأيك اذن وقررت قبول دعوتي. لكنك تأخرت في هذا القرار.

أنه حلم.. ديلين كانت مقتنعة أنه حلم. أنه مجرد خيال يتقدم منها.. بول لم يدعها سوى للمجيء معه... فيما بعد اعلمها أن كل شيء انتهى بينهما... لذلك من المستحيل أن يقول ما قاله الآن.

لكنه لم يكن خيالاً ما انتزعها عن الارض الى ما بين ذراعيه، وسحق جسدها الهش النخيل فوق تقاطيع جسده الصلب. قوته كانت مدمرة، مشبوبة بالعاطفة، واضطرت الى التعلق بكتفيه، تتحسس تحركات عضلاته من فوق قماش قميصه الرطب.

سيطرة عناقه القاسي اقتحم احاسيسها المتلبدة ليبعثها حية مع اثارة خطيرة. الشعور العنيف المجنون الذي أخذ يجتاحها ليحطم فيها دفاعات اقسمت انها لن تسمح لأحد أن يقترب منها.. مع ذلك.. مع ذلك كان تفوقه المسيطر يحول جدران

تلك الدفاعات الى رقائق هشة سهلة الانهيار، وذلك التوق الدفين في داخلها كان يساعد في الاسراع بالانهيار. تحركات يديه المداعبتين السريعتين كانت توقظ كل ذرة منها امام شوقه اليها لتحوله الى شوق خاض بها... وتحكم الارتباك والتشوش فيما تبقى من ترابط منطقي لديها. لكنها اخيراً استطاعت ان تقاوم بضعف من خلال دوار اغشى بصرها، لتسأل بصوت متهدج!

- ماذا تفعل هنا بول؟

- ما هو هذا السؤال بحق الشيطان؟

دفء انفاسه الضاحكة داعبت بشدة وجهها الحساس. وارجع رأسه الى الوراء حتى يترك المجال للصدمة الذهبية في عينيه ان تنظرا اليها:

- أنا أعيش هنا بالطبع!

نظرته حملتها الى حافة جرن مرتفع، حيث المنظر يميل الرؤوس، مع ان الارتفاع مرعب. هذه المرتفعات التي تبعث الدوار في الرأس لم تكن تخيفها من قبل.. لكن هذا كان من قبل.. قبل ان تهوى الى قعر الهاوية. ثم جاء كليف ليجبرها على الخروج من تلك الهوة السوداء لليأس... وصوته هو الذي اخترق الان الطوق الآسر الذي يشد عليها الآن:

- ارسلتني امي بالعصير.. وستحضر....

وتوقف صوته في منتصف الجملة.

الصدر الممتلىء بالعضلات، تحت راحتي ديلين تحدد في تنفس عميق ليسيطر بول على اعصابه ثم ارسل نظرة نافذة الصبر الى وراءها. ثم عادت العينان الذهبيتان الى وجهها، ثم قال بلهجة الانتقاد اللاذع:

- توقيتك سيء جداً.. ياأخي الصغير. إذهب الآن، وعد بعد ساعة.. الافضل ساعتان.. لقد مر وقت طويل.. وقد لا اشبع منها بسرعة.

وقاحته المتعجرفة في اقتناعه انها عادت اليه بكل رضى بالرغم من أنه رماها في الماضي، كانت الشعلة التي تحتاجها كرامتها. وجود كليف، وخاتم الخطوبة في اصبعها اعطياها القوة لترد... وبحركة واحدة دفعت نفسها من بين ذراعية.. وضربته... فاصطدمت راحة يدها بعنف على خده. نظرته المصدومة تحولت بسرعة إلى غضب أصفر، قاسية، ترسل الشر حين ركزها عليها. واحست ديلين كمن ايقظ وحشاً كان نائماً.. بحذر بدأت تتراجع نحو كليف.

ضحكته المنخفضة قسمت الجو المشحون الخطير:

- قلت لك أنك لن تعرفي كيف تتعاملين مع «بد».. ووضع يده الثابتة على كتفها لتستدير بسرعة سعياً للحماية والامان الى قرب كليف.. وأكمل:

- مع ذلك لم أكن اتوقع ان هذا سيحدث بسرعة، وحكماً بالنظرة التي على وجهك بد لا اظنك كنت تتوقع صداً عنيفاً كهذا.

كان بول لا يزال يفرك وجهه مكان صفعتها وعيناه تلمعان، وكأنه يحاول حل هذه الأحجية.. بالتالي لم تكن تعرف حل أحجية اخرى: لماذا يستمر كليف بمناداته «بد».. وكيف لبول ان يكون أخاه؟

وقال كليف بلهجة مرحة مسلية:

- هل ازعج نفسي بتعريف رسمي؟ ام أنك ستهنئني على اختياري مثل هذه الخطيبة الجميلة؟

- وهل انتما مخطوبان؟

لو أن كليف لم يلحظ الهدوء القاتل في نبرة صوته، لكن ديلين سمعتها. وسمعت كليف يسألها:

- ألم تريه خاتم الخطوبة ديلين؟

- لم تتح لي الفرصة.

وارتفعت يدها ترتجف لتظهر الخاتم الماسي في اصبعها امام نظرة أخذة تتغرس فيه.

- حدث هذا فجأة، أليس كذلك كليف؟

- التقينا منذ شهر... واستعرت صفحة من كتابك بد، فلم أضع أي وقت بعد أن التقيتها. وحدت ديلين صوتها

أخيراً لتطلب جلاء الارتباك:

- لست افهم.. أنتما اخوان.. مع ذلك مختلفان في...

قاطعها بول:

- نحن نصف أخوين.. أم واحدة وابوان مختلفان. الم يذكر لك كليف هذا؟

أحست بالسقام للموقف الذي وجدت نفسها فيه وأجابت:

- لا.. لم يذكر هذا.

- كليف الوحيد الذي يدعوني بد وأنا بالنسبة للجميع بول.

- بول دارسي.. «ب» و «د» بد.

لم تعرف ديلين تماماً لماذا رددت اسمه كاملاً إلا اذا أرادت أن يدخل رأسها جيداً. والاكثر أنها لم تدل عليه بعد أمام كليف على أنه الرجل الذي دمرها... مسكين كليف هو الوحيد الذي لا يعرف بعد... الى متى تستطيع اخفاء السر عنه؟ كم سيمر وقت قبل أن يقول له بول؟ هل سيحاول ابتزازوها؟ والى أي مدى؟

قال لها بول ولمعان رضى في عينيه الذئبيتين:

- أنت شاحبة ديلين.. هل لي أن انادبك ديلين؟

كان في صوته رنة سخرية تذكرها بانه دعاها باسماء كثيرة

منذ ستة اشهر. . . وابتلعت ريقها بصعوبة:

ـ أنا. . . لدي صداع. . . ربما بسبب السفر. . حين كنت صغيرة كنت اصاب بالدوار من ركوب السيارة.

قال لها كليف:

ـ لماذا لا تجلسي ديلين أنت متوترة اعصابك مشدودة كالوتر:

تدخل بول:

ـ انها بحاجة الى تدليك كليف. . التدليك الجيد يصنع المعجزات للعضلات المتوترة.

نظرته المقصودة كانت تقترح أشياء اخرى، أكثر حميمة بالرغم من صوته العادي الجاف. . . وبكل بساطة اعطاه كليف الاذن:

ـ كنت دائماً أبرع مني في هذا بد.

سارعت ديلين للاحتجاج حين خطا بول نحوها.

ـ لا!. . ليس الامر ضرورياً في الواقع. قرصين من الاسبيرين سيفيداني.

قال بول:

ـ كليف، لما لا تأتها بقرصين من علبة الادوية؟

صدت ديلين تلك المحاولة للأنفراد بها:

ـ لدي البعض في حقيبة يدي.

حين ناولها بول الحقيبة كان عليها ان ترى يده لتتذكر كيف كان يثيرها ويداعبها بها بسهولة. وشكرته بأدب وهي ترفع رأسها نحوه، ليغزو الدفء بشرتها، وسارعت الى خفض رأسها لتفتش عن الدواء. . وسألها ساخراً:

ـ ألم تجدي ما تفتشين عنه؟

كل ما كانت تريده الآن هو وجود حجر تزحف اليه لتختبيء ووجدت علبة الدواء. وأخذت قرصين. . وقدم لها كليف كوب عصير بارد:

ـ حضرت لنا امي بعض عصير البرتقال. . أم تفضلين الماء؟

ـ لا. . هذا عظيم. أين هي امك؟

دلالة التوتر أخذت ديلين تتلاعب بخصلة شعر قرب اذنها. وادركت ان شعرها مشعث فمدت يدها ثابتة الى حقيبتها.

ـ امي ارادت بضع دقائق لتغستل وترتب ثيابها. قبل ان تقابلك.

امتدت يد سمراء قاتمة لوحتها الشمس بسيكارة نحوها. . وسمعت بول يتمتم:

ـ ستساعدك هذه على اراحة اعصابك.

ـ لدي سكائري. شكراً لك.

- أنها من نفس النوع.

التلميح المقصود كان سخرية صامتة وكأنه يقول لها «الا تذكري؟» مما سبب لها حرارة ارتفعت الى خديها.. فاخذت السيكارة منه وقالت:

- شكراً لك.

ودخلت إمرأة طويلة أنيقة الى غرفة الجلوس:

- آسفة لتأخري لكن كليف فاجأني على غير استعداد.

شعرها الاسود مخطط بالرمادي بوفرة. إبتسامتها دافئة، وكل اهتمامها كان موجهاً لديلين. لكن يبدو أنها لم تكن راضية عن النتيجة.

- حين ذكر كليف أنه سيأتي معه بصديقة ظننت... لا يهم ماظننت.

وقفت ديلين عن الصوفا حين تقدمت المرأة نحوها وإلى جانبها كليف... لكن بول، الجالس مرتاحاً على كرسيه بكسل هو من قام بالتعارف:

- أمي.. اليك زوجة ابنك المستقبلية.. ديلين ايفرلاي.

- كيف حالك سيدة واردن.

تحيتها كانت متصلبة مع أن شبه المرأة القريب بابنها كليف كاد يدفع ديلين للبكاء بارتياح. وقالت المرأة:

- سوزان.. ارجوك.. وأنا سأدعوك ديلين اهلاً بك في

اسكتلندة.

- شكراً لك.. طيبة منك ان تستقبليني.

والتفتت الام إلى كليف:

- انها جملية جداً.

فضحك ووضع ذراعه حول خصر ديلين:

- لا تبدي الدهشة إلي.

- يجب أن تعذريني ديلين، لو أن الكلمات تخونني.. فهذه الخطبة كانت مفاجئة لي. حتى أن كليف لم يذكرك من قبل. ولم يكن لديّ فكرة انه جاد حول اية فتاة.. ارجوك اجلسي.. منذ متى تعرفان بعضكما؟ وكيف التقيتما؟

أجاب كليف:

- التقينا صدفة منذ شهر.. صدمتها بسيارتي في أحد الشوارع وأنا اتراجع لأخرج من الموقف.

التفتت سوزان الى ديلين بقلق:

- وهل تأذيت؟

- لا.

غمز كليف لأمه:

- نظرة واحدة اليها جعلتني اصرّ على أن اوصلها الى منزلها سالمة. طبعاً بعد جدال كبير واقناع... اخيراً أقنعتها بالخروج معي... ولم يكن لها فكرة جيدة عن الرجال ساعتها...

أحست ديلين بعينين ذهبيتين تضيقان فوقها.. وإلا... فقاطعته بسرعة وكأنها تحذره:

- كليف!

لقد نجت من علاقتها ببول وبعض من كرامتها سليم.. ولا تريد من كليف، دون قصد منه ان يسلبها ما تبقى سالماً... تردد كليف ثم ابتسم:

- وإلا لما لزمني وقت طويل..

سألتها سوزان:

- هل استطيع رؤية خاتمك.

مدت ديلين يدها بالخاتم الماسي فتابعت الام:

- أنه جميل.. ومتى موعد الزفاف؟ هل حددتما يوماً؟

تدخل كليف:

- ليس بعد.. اعطنا قليلاً من الوقت أمي. كنا نتحدث عن خطبة طويلة وزفاف ضخم.

لم يتوقع أحد من بول ان يعلق:

- لا اعتقد أن هناك داعٍ للعجلة.. في هذه الايام. أحمرّ وجه ديلين، ورمقه كليف بنظرة تصمته.. وسارعت سوزان لتغيظه:

- بدلاً من السخرية بول، عليك ان تلحق بما فعله اخوك.

- سأفعل.. لكنني لا أظن ان كليف يقبل بمشاركتي عروسه.

احساس وحشي قبض على اعصاب ديلين كرد فعل مباشر على وقاحته. عيناه ذكرتاها بعينيْ نمر متحجرتين. واحست أنها عالقة في حقله الممغنط، عاجزة عن انكار الاثارة التي يولدها في داخلها وهي تقاوم جاذبيته. ولربما لم ينتبه كليف للتيار المتوتر الذي كان يدور ما بين بول وديلين، لكن سوزان لاحظته.. فنظرت الى ديلين باضطراب، بعد ان لاحظت كم ان وجود ابنها الاكبر يوترها دون معرفة السبب. وقالت:

- بول.. الاتظن أنك بحاجة الى حمام وتغيير ثياب؟

صحيح أنه لم يكن يهتم بمظهره أو رائحة عرقه، لكنه وقف واخذ قبعته عن الكرسي.

- ساراكم فيما بعد.

واحست ديلين أنه يعنيها... ثم سألت سوزان:

- هل قدم كليف لك العصير الذي أعدته؟

- أنه لذيذ.. وماذا وضعت فيه؟

- عصير برتقال طازجة، وبيضٌ وبعض العسل.

وضحكت سوزان سرعان ما تحول الحديث الى مواضيع منزلية خفيفة ثم تحول فيما بعد الى اقتراح من سوزان: دعيني اريك غرفتكي ديلين أتصور أنك ترغبين في فك حقائبك،

والأغتسال قبل العشاء.

- أجل.. شكراً لك.

التفتت المرأة إلى ابنها:

- شاهدت فيكتور في الخارج يسقي الازهار... سيساعدك في حمل الحقائب كليف.

- حاضر.

لحقت ديلين بسوزان واردن الى السلم العريض نحو الطابق الاعلى حيث وجدت أمامها ردهة مستديرة حول السلم... كل أبواب غرف النوم كانت تنفتح الى الردهة هذه. أول ما فكرت ديلين فيه.. أيها غرفة بول.. واصرت بينها وبين نفسها أن هذا التساءل ما هو إلا وسيلة دفاع عن النفس. قالت سوزان وهي تقف بباب خشبي الى يسار الردهة:

- أظن هذه الغرفة ستعجبك. نحن نستبقيها للضيوف المميزين.. فهي تحتوي على حمام خاص، وشرفة خاصة وانت ضيفة مميزة ديلين.

رددت ديلين بسخرية في نفسها: بل فريدة من نوعها وصف أكثر دقة. فهي تشك في أن تكون سوزان واردن مرحبة هكذا لو عرفت أنها متورطة مع أحد أبنائها ومخطوبة للثاني.

كانت الغرفة مزيج مذهل من اللونين الابيض والتركوازي مع أثاث من الخشب الاسود، ليخلف التقارب الصارخ بين الالوان. الستائر والاغطية كانت ممتزجة باللونين وهما كذلك معكوسات في الوان السجادة الشرقية النفيسة.. زوج من الابواب المنقوشة يغطيان خزانة ضخمة.. باب آخر يقود الى حمام مزخرف، بطراز انكليزي قديم... وقالت ديلين:

- انها جملية.

- أنا مسرورة لاعجابك بها... ها قد وصل كليف بالحقائب ساتركك الآن لفتحها.

ما أن غادرت الغرفة حتى دخل كليف:

- أين تريدين وضع الحقائب؟

- ضعها على الفراش.

حين تحررت يداه، استدار ليضعهما حولها.

- اعجبتك أمي؟

- انها تشبهك فكيف لا احبها؟

أحس كليف بتحفظ في صوتها فوضع يده تحت ذقنها ورفع رأسها اليه:

- ما الامر ديلين؟ أهناك شيء خاطيء؟

- لا.. لا شيء.

لكنها لم تستطع منع البرود من ردها.. ولم تستطع كذلك

www.elromancia.com

الاحساس بالارتياح بين ذراعيه. . ليس وهو يجهل أمرها مع بيل. لكن كليف استطاع قراءة افكارها بسهولة.

ـ أنه بد؟ الا زلت متكدرة من مغازلته لك؟ لا يجب ان تتركيه يزعجك.

جاء صوت بول من الباب ساخراً:

ـ ولماذا أزعجك؟

أجفلت ديلين، وانتزعت نفسها من بين ذراعي كليف وكأنها مذنبة. كان يقف مستنداً الى حاجب الباب وذراعاه متقاطعتان أمامه. . . وطافت عيناه في الغرفة:

ـ اذن هذه هي الغرفة التي اعطتها لك امي؟ فراش مزدوج مريح وجميل. . . اكثر من كبير لأثنين.

سارع كليف يدافع عنها:

ـ هيا الآن بول. . ديلين ليست من هذا النوع. رد بول وكانه مندهش:

ـ اليس هكذا؟

ـ لا. . ليست كذلك.

تقطيبة سريعة قطعت جبين كليف لتظهر اسيتاءه من استمرار ازعاج أخيه لها. لكن ديلين تدخلت بصوت منخفض أجش:

ـ توقف عن هذا كليف! أنا لست قديسة. التفت يقطب

في وجهها:

ـ ولست الخاطئة كذلك.

اعلن بول بابتسامة ملتوية:

ـ هذا يجعلك شهيرة ديلين. فك ذراعيه عن بعضهما وابتعد عن الباب:

ـ العشاء في السابعة. . ونحن على الشرفة لمراقبة الغروب قبل هذا بكثير، فانزلا متى شئتما.

لاول مرة سمعت ديلين تلك الرنة الممتلئة بالسلطة في صوته. . . كانت طبيعية جداً. وادركت أنه قادر على السيطرة بقدر قدرته على الاغواء. . . وهي لم تعرف عنه الكثير كرجل وتمتم كليف متنهداً:

ـ هذ ـ يعطينا وقتاً طويلاً. . اليس كذلك؟ سأمر لأرى اذا كنت جاهزة قبل أن أنزل. قبّل خدها بسرعة قبل ان يترك الغرفة.

مرت ساعة قبل ان يعود كليف ليدق الباب. . في ذلك الوقت كانت قد أفرغت حقائبها الثلاثة، واستحمت، ثم غيرت ملابسها لترتدي فستاناً أزرق مشجرّ. واطرى كليف مظهرها. . لكنها لم تجد السعادة في اعجابه. . معاً إتجها ينزلان السلم ثم الى الشرفة المغطاة من جهة البركة. وقفت سوزان من كرسي حديدي مزخرف لتحييهما:

www.elromancia.com

ـ هل استقريتما؟

أجابت ديلين:

ـ اجل شكراً لك.

قال كليف:

ـ اذا كنت تأخذ دور الساقي بد، فسآخذ عصير الكرز مع الصودا.

ـ ساصبها لك فوق مكعبات الثلج.. وماذا تأخذين ديلين؟

ـ عصير برتقال ارجوك.

إلتفتت سوزان الى ديلين وقالت هامسة:

ـ يجب أن اعتذر عن ابني.. أنه متوتر الاعصاب وفظ مؤخراً.. وكان سيء المزاج منذ أشهر.

ـ رد بول وهو يقدم اليهما شرابهما:

ـ يقال ان هناك امرأة سببت لي هذا. ضحك كليف:

ـ امرأة؟ هذا مستحيل.. ربما نساء.. بالجمع..

نظرت ديلين عبر رموشها المنخفضة فوق عينيها الى بول بحيرة.. جملتان بقيتا ترنان في ذهنها من الحديث! «سيء المزاج منذ اشهر» و «هناك امرأة» هل يحاول ان يشير الى أن لها تأثير متأخر عليه؟ رفعت سوزان كأسها في نخب ديلين وكليف:

ـ في صحة عروس وعريس المستقبل.

والثلاثة يحتسون العصير من كؤوسهم لاحظت ديلين ان بول لم يشاركهم... وكانت كأسه لا زالت على الطاولة قرب أباريق الشراب.. وتأخر ليذهب ويأخذها بعدما بقي منفصلاً عنهم... متباعداً عن العائلة الصغيرة المحتفلة بالخطوبة، وصامت.

صمته جعل ديلين قلقة غير مرتاحة كما جعلتها ملاحظاته الساخرة من قبل.

* * *

- ٣ -

الحلم

الطباخة المرأة الهادئة المتوسطة السيدة كارلستون، ازالت الاطباق عن الطاولة. وجودها أوقف الحديث للحظات. ثم تابعت سوزان، من مكانها على اسفل الطاولة كمضيفة بينما كان بول على رأسها:

ـ أين يعيش اهلك ديلين؟

ـ لم يعودا عائشان. فقد قتلا في حادث تحطم طائرة منذ خمس سنوات.

ردد كليف الجالس قبالتها:

ـ خمس سنوات؟ لم أكن أعرف هذا. . ألم تصابي بالخوف من الطيران.

ـ ليس على الفور لكنني بعد سنة تزعزع ايماني واصبحت

أؤمن أن كل ما يطير يجب أن يقع.

قال بول مستنتجاً:

ـ وهكذا اصبحت تخافين من الطيران.

ـ اجل. . لكنني استطيع ترديد كل الخصائص التي تبرهن ان الطيران أكثر أماناً من القيادة على طرقاتنا.

وابتسمت ساخرة من نفسها. . فقالت سوزان:

ـ الاجواء اصبحت مكتظة كذلك.

ـ لكن ليس كالشوارع. . حين تسقط طائرة على متنها مئتا شخص، هذا خبر خطير ينشر في كل الدنيا. . لكن مئتا سيارة فيها مئتا شخص يمكن ان تتحطم يومياً، ولا يكون الخبر مثيراً للنشر، لكن لو تحطمت سيارة فيها مائتا شخص، ستكون القصة مختلفة!

سألها بول:

ـ اذا كنت مقتنعة أن الطيران آمن، فلماذا تخافين؟

ـ الخوف ليس منطقياً على الدوام جميع من يطير قد يخاف.

قالت سوزان:

ـ لا بد أن حادثة ذويك كانت عاملاً مشجعاً لخوفك.

ـ ربما. . فبعد مقتلهما اردت الاستقرار على الارض، ان يكون لي منزل مكان انتمي اليه.

وكادت تضيف وشخصى انتمي اليه. وسألتها سوزان

www.elromancia.com

بعطف:

- او ليس لك عائلة اخرى؟

هزت رأسها لتتحرك خصلات شعرها كالستارة الحريرية:

- لا.

ابتسم كليف:

- لك الآن عائلتي.. كما هي.

لم تتمكن ديلين من ايجاد تعليق مناسب على كلامه.. ولحسن حظها قالت امه.

- انت اضافة مرحب بها في عائلتنا ديلين. اعجبتني من اول نظرة. حين شاهدتك كان لي احساس مجنون بانني أعرفك طوال حياتي.

الصدمة جففت كل لون من وجه ديلين.. هذه الكلمات بالذات هي التي قالها لها بول حين التقيا في الحديقة العامة.. وبعد لحظات كانت بين ذراعيه. ارتفعت يدها كرد فعل، لتصطدم بإبريق الماء امامها وتوقعه فوق الشرشف الابيض، ووصل الماء المثلج الى حجرها لتستفيق على ما فعلت. فتنفست بحدة:

- اه.. يا لهي.!.. أنا أسفة!

لكن سوزان كانت قد رفعت الابريق واندفع كليف ليلتقط الماء بالفوطة التي معه... وقالت سوزان مطمئنة:

- انه مجرد ماء ديلين.. - اقلت شيئاً ازعجك..

- ابداً.. لكن..

ونظرت بسرعة نحو بول، اهذا شحوب على وجهه الاسمر ام انها تتخيل؟ واكملت وهي تنظر اليه:

- شخص آخر قال لي نفس الكلام مرة... أنا آسفة لدلق الماء.

- سيجف.

- خاصة في هذه الحرارة.

بطريقة ما، تمكنت ديلين من اكمال فترة العشاء والقهوة في غرفة الجلوس فيما بعد. ولم تستطيع قبل العاشرة ان تعتذر دون اثارة العجب... وتمنت للجميع ليلة طيبة ورافقها كليف حتى أسفل السلم، حيث اصرت ان تكمل طريقها لوحدها الى غرفتها.

مرت بها اوقات ظنت نفسها تحب قبل ان تلتقي ببول. بدأت بافتتان بينها وبين زميل دراستها لم ينضج مطلقاً. بعد ذلك بمدة قصيرة توظفت كسكرتيرة ولاحقها باصرار موظف وسيم متزوج.. لكن من المذهل كيف ان إهتمامه بها تلاشى بعد أن انتقلت من القسم الذي تعمل فيه معه الى الادارة العامة. بعدها افتتنت بلاعب كرة قدم، الى ان اكتشفت انه يواعد فتاة أخرى في نفس الوقت.

هذه كانت خيبات امل، مجرد كدمات.. لكنها لم تسبب لها تحطم القلب. لكن هذا ما حصل مع بول وذعرها ناتج عن معرفتها انه قادر على إثارة عواطفها ثانية. وهي تريد ان تبقى آمنة، وقدماها ثابتان على الأرض... أنه نفس الخوف من الارتفاعات الشاهقة، والخوف من الوقوع ثانية.

وابتلعها السرير الثقيل ذو الأربعة قوائم.. وتساءلت عما اذا كانت ستتمكن من النوم... كانت مستلقية على معدتها، والغطاء متراجع عن جسدها، حين لامست يد ظهرها لتوقظها. وقاومت الوعي.. فقد كانت تحلم حلماً رائعاً لم ترده أن ينتهي.

لكن اليد كانت اكثر اصراراً منها، وسمعت صوت اجش يقول:

ـ هيا ايتها الكسولة.. لو تركتك لنمت حتى الظهيرة:

استدارت الى جانبها، ورفعت رموشها ببطء وكسل ابتسامة خافته من الرضى تلامس شفتيها حين لاحظت ان حلمها اصبح واقعاً.. وان موضوع هذا الحلم كان يجلس على حافة السرير.

ـ اووه.. بول..

وتسللت اصابعها الى كم قميصه ثم الى كتفه:

ـ لماذا ترتدي ملابسك؟ هل نحن خارجان باكراً.

التفت ذراعاها حوله وطافت يداها بالقوة التي تعرفها جيداً في جسده. وانتشرت نار مجنونة في عروقها.. لكنه ابعدها عنه وبقيت يداها على صدره.. ففتحت عينيها ببطء وهي تتنهد باسمه «بول!».. فقال ساخراً:

ـ هذا كان منذ ستة اشهر حلوتي... هذا الصباح لديك جولة في البساتين مع خطيبك.. كليف.. أتذكرينه؟ فرقع الحلم الجميل كفقاعه صابون هشة.. اليدان اللتان كانتا سعيدتان بملمس دقات قلبه المتراتبة تصلبت.. شهقة فزع تحولت الى حسكة في حقلها وهي تلاحظ الطريقة التي اذلت بها نفسها. فصاحت بانكسار:

ـ ماذا تفعل هناك اين كليف؟

ـ انه بانتظارك في اسطبل الجياد الاصلية. كنت اعرف انك ستتمسكي بالفرصة وتنامي حتى وقت متأخر، لذا وعدته أن آخذك اليه قبل حلول الظهر.

صاحت بغضب شديد:

ـ اخرج من هذه الغرفة! ماذا لو ان امك جاءت الى هنا؟

خطوط فمه تعمقت في بسمة متغطرسة:

ـ لا داعي للقلق.. انها ليست هنا.

انخفضت عيناه ليمررها بكسل فوق جسدها:

ـ لم أكن اعلم أن البيجاما ببنطلون طويل قد تكون مثيرة

هكذا ومد يده ليفك العقدة الحريرية التي تربط شدة البيجاما فصاحت به بإحتجاج بكل ما لديها من أنفاس في رئتيها:

- لا تفعل!

- لكن هذا ليس ما كنت تقولينه منذ لحظات.

وفك العقدة الثانية بسهولة.. واخذت مقاومتها تضعف بالرغم من تحذيرها الصارخ:

- بول! توقف عن هذا!

- وماذا ستفعلي يا حلوتي سوداء الشعر؟ هل ستهمسي طلباً للنجدة؟

وضحك بصوت خفيض. ادارت ديلين وجهها الى الوسادة تقاوم الضعف الذي اخذ يذيب اعصابها، ويدفعها الى الاسترخاء تحت لمساته... لكن هذا لم يردعه.. واكمل مداعباته فاحست بمشاعرها تستيقظ، وعرفت أن عليها ان توقفه قبل تغمرها ثورتها الداخلية.

استخدمت كلماته بالذات لتوقفه عند حده:

- أنا مخطوبة لاخيك.. اتذكره؟

صحيح ان لهجتها كانت مسترخية، لكن لذعة الكلمات كانت حادة. فقد اخذت اصابعه المداعبة تنسحب بقوة مؤلمة حتى اصبحت اخيراً تمسك بحرير البيجاما قبل ان تنغرز في ذراعيها، ورفعها عن الوسادة.. اللمعان المتوحش في عينيه

كان يحذرها انها ايقظت نمراً كان نائماً.

- كنت لي قبل ان تصبحي له!

- ورماها فوق الوسادة، ونظر اليها بإهانة وهي تسعى لتغطي نفسها بذعر.. وسرعان ما دفع نفسه بعيداً عن السرير متجها الى الباب.. وصاحت بوجهه:

- اخرج من غرفتي وابقى بعيداً عنها!

استدار نحوها واعصابه ثائرة كالاعصار:

- لا! فهذه غرفتي! وانت ضيفة عندي! أنا أملك هذا المنزل وكل الارض التي حوله!

- لكن سوزان....

- امي هنا لأنني سمحت لها! فلنوضح هذا. أنت في منزلي، وفي غرفتي. وأنااقول من يبقى ومن يرحل ولا احد غيري! لذلك لا تصدري لي الاوامر مطلقاً بما يجب ان افعل في منزلي. كوني تحت بعد ربع ساعة... سنركب الخيل حتى الزرائب المسقوفة.. فارتدي ما يناسب.

بهذا الامر الصارم، استدار متابعا طريقه الى الباب، غضبها تقلص ليصبح عجزاً.. ثما دفعها لتمسك بالوسادة وترميها الى الباب الموصد... واحترقت عيناها بالدموع. فرددت من بين اسنانها باصرار:

- لن ابكي.. لن اذرف دمعة اخرى عليك.. بول

دارسي. لزمها الكثير من المياه الباردة لتبرد حرارة عينيها.. في صوته لهجة تهديد، حتى ولو حاولت تجاهلها، وعليها أن تكون جاهزة بعد ربع ساعة. واذا لم تفعل، سيصعد بكل تأكيد لينزلها بنفسه.. هذا مع علمها بانها ذاهبة الى كليف الذي يمثل الآن خط دفاعها الوحيد مما جعلها ترتدي بسرعة بنطلون الجنيز وتي شيرت وحذاء عالي الجنبين. وكانت مقطوعة الانفاس من السرعة حين انتهت ووصلت اسفل السلم.

ادركت ان بول لم يحدد لها مكان اللقاء فاتجهت نحو الشرفة.. كان يقف في الظل، كتفه مستند الى عمود القنطرة، يده تمسح دليل تعب اعصاب فكه أو رقبته.. لكن انطباع التعب تلاشى حين شاهدها وتقدمت اليه ترفع ذقنها بتحد فارغ. وقالت:

- أنا جاهزة.

اشار بيده الى الطاولة خلفه:

- هناك عصير برتقال، وقهوة، وخبز محلو على الطاولة.

- دون فطار؟

- تأخرت في النوم. امامك خيار في تناول الفطار الآن وافساد الغداء الذي ستحضره لك ولكليف زوجة هنري..

- ومن هو هنري؟

- احد رؤساء العمال لديّ. مسؤول عن الفاكهة وشحنها. منزله هو بيت آخر لكليف ولي حين كنا صغاراً.

- ايعمل هنري لك؟ أاليس من العائلة؟

- الكل يعمل «لي». وقبل هذا كانوا يعملون لأبي.. وهذا ما يجعل الجميع في اراضي مزرعة ميغان غلين عائلة واحدة... بالولاء اذا لم يكن بالدم.

- اذن.. لديك امبراطورية اقطاعية هنا.. اليس كذلك؟ وانت السيد الحاكم.

نظر بول اليها بحدة ثم استدار، واحست انه لو لم يستدر لاستخدم العنف الجسدي معها. فارتجفت للفكرة، وقالت:

- لم يكن من داع لقولي هذا.. وأنا اسفة بول.. لست ادري لماذا قلت ما قلته.. أنا... اعتقد انني.. اردت اغضابك... أن انتقم منك.

رد ببرود صارفاً اعتذارها.

- انسي الامر ماذا تفضلين الفطار ام الغداء؟ مرة اخرى اصاب كبريائها بقلة اكتراثه. فاجبرت حلقها الابتلاع بقوة:

- الغداء.

شربت عصير البرتقال غضباً ووضعت الكوب الفارغ على الطاولة.

- انا جاهزة.

- دون قهوة أو خبز؟

- لا.. قلت اننا سنركب الخيل.

- جاك سيأتي بجوادينا الآن.

رده بعث نظرها باتجاه المرج خلف بركة السباحة لتجد رجلاً يتقدم نحو المنزل يجرّ جوادين مسرجين كستنائي بغرّة بيضاء، وآخر رمادي. وسألها بول:

- الديك قبعة.. شمس الظهيرة قوية جداً.

- لا.. ليس لدى واحدة. وهي تراقب تقدم الجوادين، تسلل بول نحوها بخفة النمر التي نسيت انه يمتلكها:

- هذا ما اعتقدته. هاك واحدة لأمي. تأكدي من انها تناسب.

اعطاها قبعة رمادية لها سطح واطار منبسطان. وانتظر. تحت سطوة نظرته، وضعتها على رأسها. فتلائمت تماماً فوق خصلاتها السوداء لتضغطها وتجعلها كاطار الصورة حول وجهها... واستدارت ليتفحصها:

- ما رأيك؟

لم تتوقف نظرته عند القبعة.. بل تابعت تجوالها لتدور متفرسة في قميصها القطني الملتصق.. فشرخت بانفسها في رد فعل مضطرب للمسة عينيه حين وصلت خصرها ثم اكملت فوق ساقيها الملتفين بالجينز.

- جئت بالجوادين بول.

صوت الرجل انتزع الخيط الخفي الذي شدّ نظرة بول الى جسدها. دون أية كلمة، استدار نحو حافة الشرفة حيث العشب ينمو ليصل الدرابزين. وصهل الجواد الرمادي القوي العضلات لرؤيته ورفع اذناه باتجاهه.. وتباطأت ديلين في اللحاق به.. ومع ان بول لم يكن ينظر اليها إلا أنه لا حظ اهتمام الشاب الازرق العينين بها.. فقال:

- هذا جاك ماثيون... ديلين ايغرلاي. اعطها «برايت» وطالما هي هنا سيبقى «برايت» تحت تصرفها.. لكن لا اريد ان تخرج لوحدها.

- اجل سيدي.

النظرة المحتارة التي رماها الشاب نحو بول، كانت تشير الى أنه لم يعتد مثل هذه الكياسة منه.. واعطى اللجام لديلين ممسكا برباط السرج ويده الاخرى تحت مرفقها يساعدها على الصعود الى صهوة الجواد. بينما رفع بول قدمه الى الركاب ثم ارتفع في الهواء ليطوح ساقه الاخرى بحركة رشيقة ومستوى.

- شكراً لك جاك..

ولأن بول كان فظاً كانت ابتسامتها التي رافقت شكرها أكثر دفئاً مما كانت تنوي.. ورد جاك على الابتسامة ملامساً حافة قبعته:

- في أي وقت آنسة.

بقيت سرعتهما خفيفة الى ان قطعها المرج كي لا تحفر نعال الجياد الحديدية العشب لو اسرعت. ووصلا الى بوابة الحقل البيضاء المفتوحة فاخترقها الجواد الرمادي بسرعة. وبلمسة من المهماز انطلق الكستنائي خلفه.

سرعان ما وصلا الى سياج من الشريط الشائك ودون ان يترجل تقدم بول بحذر من بوابة لم تكن ديلين تراها، وفتحها. ثم اعاد ربطها بعد ان مرا عبرها.

تابعا السير بصمت الى ان لم تعد ديلين تطيق السكوت:

- لم اكن اعرف انك شقيق كليف.. صدقني.. ولو عرفت لما جئت الى هنا ابداً... اثرت الّي مرة انك تملك مزرعة.. وأن.... تحديدك لمفهوم المزرعة لم يتوافق مع تحديدي.. لم أكن افكر بمزرعة اشجار فاكهة وتربية خيول للسباق. فالمزرعة لي تعني الماشية بقر.. غنم..

- والذي هناك ليس جاموس ماء.

استدارت الى حيث اشار ليظهر لها ثور احمر قاتم يقف في ظل شجرة، جسده الضخم، كان نصف مختبيء في الظل بينما ما تبقى من جلده البني الاحمر كان تحت اشعة الشمس. ادار الثور اذنه بسرعة ليطرد حشرة، ثم اخذ قرناه المعكوفان المدببان يستديران ببطء وهو يراقب مرورهما.

- حسناً.. لديك بضعة ابقار.

- ما يقارب الخمسة آلاف رأس، عدا الرضيعة وامهاتها... عدا عن بضعة الآف من الغنم، عدا الشوارد الهاربة والتي يجب أن تحمل دمغة «ميغان غلين».

فغرت فمها ذهولاً.. وبنظرة جديدة طاف نظرها في البراري المترامية امامها، فبدت لها من غير حدود.

- وكم كبر المزرعة؟

- ما يقارب المئة والخمسين الف فدان... الف فدان منها فقط مزروع بالاشجار المثمرة. وخمسة الآف لتأصيل الجياد والباقي كله للماشية. لدي ما يقارب المئة عامل.. هل اصابتك الدهشة؟

لم تستطيع ديلين الانكار:

- لم أكن أعلم ان هناك مزارع بهذا الحجم في اسكتلندا.

- كان هناك مزارع أكبر من هذه ايام عمكلة عائلة ستيوارت وقبل تشتت القبائل الاسكتلندية الاصلية..

- لكن اسكتلندة مشهورة بفاكهتها ومزارعها الصغيرة وليس بمزارع رعاة البقر كهذه.

- رعاة البقر الذين تقصدينهم هم اختلاف افلام الغرب الاميركية.. ولهذا تلاحظي ان هذه الارض بمعظمها ليست مسورة... في القديم كان الراعي يحتاج الى مشقة ليحافظ على

قطيعه اما اليوم فكل ما يحتاجه جواد جيد سوط وكلب رعاة جيد.

وميغان غلين لك.

ـ أجل!

الكلمة الواحدة كانت ثرية بالكبرياء وحب التملك. بسيطة لكن مؤثرة وفعالة.

ـ أكانت لعائلتك منذ اجيال؟

ـ اجل.. لعائلة دارسي.. والدي اورثني اياها بعد مماته... كما اورث والد كليف له مكتب المحاماة الناجح.

ذكر كليف، سبّب الصمت بينهما.. واصبحت الارض تحتهما سهلة فحث بول جواده نحو مرتفع صغير يشبه السد لمنع السيل من الوصول الى اشجار السرو، وبالتالي حصره في بركة وهي تحت الجواد الى اعلى السد، تركت ديلين عينيها تسرحان في جمال اشجار السرو العملاقة البدائية.. انها لا تختلف عما كانت عليه منذ مئات السنين. فجأة قفز الجواد ليصعد التل فاهتز السرج تحتها واختل توازنها، لكن للحظة، سارع بول ينزل عن جواده ويوقف جوادها، ليربط حزام السرج جيداً.

* * *

ـ ٤ ـ

أحبك إلى الأبد

راقبته ديلين محني الرأس، منهمك بما يفعل، وجهه كله رجولة، قسماته منحوتة من خشب الصندل الأسود... وأخذت يدها دون وعي تدلك جلد الجواد الكستنائي اللامع.. ملمسه ذكرها بملمس عضلات بول القاسية.. وأحست بتهور قوي لأن تمد أصابعها بين خصلات شعره البني الذهبي.. لكنها كورت يدها إلى قبضة لتقاوم الإغراء الصارخ الوقح.

رفع نظره إليها وقال كأنه يوجه لها الإتهام:

ـ اعتقد أنك أخبرت كليف عني.

اجفلت:

ـ يعرف أن هناك رجلاً آخر، لكني لم أخبره من هو.

www.elromancia.com

- لماذا؟

- ولماذا أقول له؟ أنا مخطوبة له، لكن هذا لا يعطيه الحق في أن يعرف اسم الرجل والتاريخ الذي كنت أخرج فيه معه. كليف يعرف.. انني كنت مع رجل آخر.. لكنه لا يتوقع مني وصفاً دقيقاً لمن هو، وماذا، وأين. ولا أتوقع منه أن يقول لي عن النساء في حياته.

- لكن الظروف تغيرت.. أم أنك لم تلاحظي هذا؟

- وكيف لي أن أعرف أنك شقيقه؟ كان يشير إليك باسم «بد»، ولم يذكر شيئاً عن ابوين مختلفين.. وطريقة وصفه للمزرعة جعلتني اعتقد أنها مزرعة أشجار مثمرة. وأنت.. أنت لم تقل لي شيئاً عن أخ لك.. ولا أذكر انك ذكرت لي شيئاً عن عائلتك... كنت دائماً مشغول...

وصمتت تختنق الكلمات في حلقها، فاكمل لها:

- .. مشغول بإظهار حبي لك.

صاحت متوترة للهجته والطريقة التي كان ينظر فيها إليها:

- اجل..

- وهل عاشرت كليف؟

- لا.. فلست مستعجلة كما كنت. ولم أعد ارمي نفسي عشوائياً في علاقة مجنونة منذ التقيتك.

- عظيم.

ارادت العودة إلى ظهر الجواد سعياً للثبات بدل الوقوف على ساقين ضعيفين مرتجفين. لكن حين خطت لتصعد، وضع ذراعه أمامها ليمنعها، ووجدت نفسها في فخ.. فتراجعت كي لا تلامسه ملتصقة بسرج جوادها. وقال ليكمل حديثه:

- عظيم.. لأنني أكره أن أرى نفسي في موقف اضطر معه لضرب أخي لأنه أخذ مني ما هو لي.

- أنا لست لك.

- بغض النظر عن هذا الخاتم.. اعطيتني الحقوق عليك منذ ستة أشهر.

لامست يده كتفها، ثم امتدت إلى عنقها لترتفع اصابعه إلى ذقنها ويشدها إلى فوق.. فتسارعت نبضاتها، بجنون للمسته. وأخذت تتنفس عميقاً لتسيطر على تقلص أعصاب معدتها. وقامت باحتجاج.. تحتاج أن تذكر نفسها أكثر مما تذكره:

- توقف عن الادعاء بأنني بالنسبة لك أكثر من معرفة عابرة.

- معرفة عابرة؟

ردت بصوت مختنق:

- ما المهم بعدد الأيام؟ كانت مجرد علاقة مجنونة.. مجرد طريقة لتمضية الوقت.

- لكنها كانت طريقة لذيذة.. أليس كذلك؟

- لا!

وكان هذا كذب بالكامل، وكان تحدياً له... حين أدركت نواياه، ارتفعت يداها لتصده، لكنها تأخرت.. فقد أمسكت يده عنقها، والتفت ذراعه الأخرى على خصرها يشدها إليه ويرفق وجهها في صدره.

شدت يديها بقوة على صدره لتبعده.. لكن الجهد الأكبر لها كان نحو تجاهل الاحساس القوي بعضلاته وعظامه تحت راحتيها. وأخذ الاستجابة ترتعش داخلها، لكنها قاومتها وقاومت الإغراء. صاحت به:

- لا!

لكن مقاومتها الضعيفة كانت تحترق، وازدادت ذراعاه قوة، حتى كادت تذوب في عناقه.. كانت تتجه لركوب النجوم والارتفاع إلى الأعالي، وبول كان يدفعها لأن لا تهتم كيف سيكون السقوط.

النجم الناري الذي كانت تطير فوقه كان يرتفع بسرعة... وستكون العودة إلى الأرض، الاصطدام، التهشم، مدمراً جداً. ويجب أن تتوقف.. أن تنزل عن نجمها، فسحبت نفسها إلى الوراء قليلاً وقالت بصوت مرتجف:

- لقد انتهى كل شيء بيننا بول. لماذا لا تترك كل شيء

يموت؟ لماذا لا تنسى؟

- وهل تستطيعي أنت النسيان؟ اتستطيعي نسيان الإحساس بيديّ على جسدك؟ اتستطيعي؟

تأوهت بالرد.. فهي لن تنسى.. وهذا هو عقابها.. ستعيش الذكريات القاسية المجنونة معها، حميمة كما كانت علاقتهما. صحيح أنها تمكنت من العيش بعد انتهائها.. لكن.. هل ستتمكن هذه المحاولة لاحيائها؟ أغمضت عينيها بقوة لتبعد صورته عنها. لكنه لم يرتدع، وهزها بقوة وخشونة:

- انظري إلي! أنت تريدينني كما أريدك تماماً.. انظري في عيني وانكري أن هذه هي الحقيقة.

عنف الاهتزاز دفعها للنظر إليه.. ولم تستطع انكار الحقيقة. لقد عادت وفقدت كبريائها واحترامها لنفسها ثانية في عناقه.. لكنها تمسكت بالشيء الوحيد النظيف الذي حصل لها:

- أحب كليف.. لطفه ساعدني على استعادة كرامتي..

ابتسم بقساوة، وأخذت قبضة يده الحادة تسترخي إلى أن وقفت ديلين لوحدها وابتعد عنها ليمسك بجواده:

- ستبلغ كليف.. اليس كذلك؟

كان ظهره اليها وهو يرمي باللجام فوق عنق الجواد، يضع

قدمه في الركاب ويقفز ليمتطي:

ـ أنا لست نكرة دون اسم دخل في حياتك ثم خرج منها.. وإذا لم تقولي لكليف الحقيقة؟ سأقولها أنا.. قد يكون لنا أبوان مختلفان.. لكنه أخي.. لم يدخل شيء بيننا من قبل.. حتى الآن. ولو تزوجته، لن أتمكن من النظر إليك دون أن أتذكر ما كان بيننا.. كليف يستحق أن يعرف لماذا سأتجنبه في المستقبل.

تسلقت صهوة جوادها، وتركت العنان للكستنائي «برايت» الذي لحق بالرمادي.. كانت كتفاها مثقلتان بما عليها أن تقرر.. فلم تلاحظ أن العشب الممتد أمامها قد انتهى لتظهر صفوف من الأشجار المثمرة.. حين توقف جوادها أمام مبنى معدني، سمعت همهمة أصوات وهدير ماكنات.

وسمعت بول يسأل:

ـ أين كليف؟

استدارت ديلين فوق سرجها لتجده يتكلم مع رجل مسن.. رد مشيراً إلى أبواب المبنى:

ـ ها هو قادم.

كان كليف يسير نحوهما كله ابتسام وغبطة:

ـ بدأت أتساءل ماذا حدث لكما.

مد يداه ليمسك بخصر ديلين وينزلها عن السرج..

وكانت متعبة الأعصاب لأن ترفض مساعدته. حين انحنى ليقبل خدها، شخر الجواد الرمادي وكأنه يذكرها بوجود بول.. وردت بصلابة:

ـ أنا آسفة للتأخير.. تأخرت في النوم.

ـ كنت بحاجة لهذه الراحة. شكراً لك بول لإيصالها إلى هنا.

رد بول بحدة:

ـ لا تشكرني.. فقد تندم.

ضرب جنبي الجواد بقدميه وانطلق مبتعداً. وعاد كليف للابتسام!

ـ تعالي، سأريك سأريك المكان.

جمعت ديلين خيوط شجاعتها، وهزت رأسها لترفض الدعوة:

ـ ليس الآن.. هناك شيء يجب أن أخبرك به أولاً.

ـ ألا يمكن الانتظار؟ هنري لديه وقت الآن ليقودنا في المكان، لكنه مرتبط فيما بعد وسنتناول الغداء معه ومع عائلته.

ـ اجل.. ذكر بول لي هذا.

ـ سيعجبك هنري.. إنه كعم لي ولبد.. كنا ننام في بيته أكثر مما ننام في بيتنا حين كنا صغاراً.

www.elromancia.com

قاطعته بنفاذ صبر:

ـ كليف.. أرجوك.. يجب أن أكلمك.

ـ تجعلين الأمر يبدو طارئاً ملحاً.

ـ وهو كذلك.. آسفة لهنري.. لكن ما سأقوله لن يكون سهلاً.. ولن أتركه لوقت آخر.

ـ حسناً.. دعيني أقدمك لهنري، ثم نتمشى بين الأشجار.

كان هنري وستهام هو الرجل المسن الذي كلمه بول.. عيناه السوداوان كانتا تبرقان بالذكاء، وابتسامته كانت دافئة نحو ديلين. وفي مناسبة غير هذه كانت ستسر لمقابلته. وقال كليف شارحاً الأمر له:

ـ آسف هنري، لكن شيئاً استجد تريد ديلين أن تحدثني عنه. وسنضطر لتأخير موعد مشاهدتها للمكان.

ـ وهل ستأتيان للغداء؟

ـ طبعاً..

بعد الاعتذار ثانية وعده كليف أن يلتقيا في منزله. وأخذت معدة ديلين تتقلص وهما يتجهان نحو الأشجار.. الهواء كان يعبق بعطر زهر الليمون القوي، هبوبه الخفيف كان يحرك الأغصان الخضراء ويحرك بالتالي الرائحة العطرة. وكم كانت تود ديلين أن تستمر في السير، لكنهما ما أن ابتعدا عن

الأنظار حتى توقف كليف:

ـ أتودين شرح ما كدرك؟

تقدمت أمامه خطوة ثم توقفت واستدارت حول جذع شجرة.

ـ الرجل الذي كان لي علاقة معه..

قاطعها كليف:

ـ هذا كان في الماضي ديلين.. ظننت أننا اتفقنا على نسيان كل الماضي.

ـ أنت لا تفهم.. ذلك الرجل.. كان بول.

ما أن خرجت الحقيقة منها حتى شهقت تكاد لا تستطيع التنفس... وشاهدت الصدمة المذهولة على وجهه.. وتمتم:

ـ لا بد أن هناك خطأ ما.

ـ اتمنى لو أن هناك أي خطأ.. لم أكن أعرف أنه شقيقك... لم أربط يوماً بين بول دارسي والأخ الذي تسميه «بد».. إذ كنت اعتقد أن لكما نفس اسم العائلة، ولو عرفت.. لكن ما الفائدة..؟ لم تكن تعرف!

التمع الخاتم الماسي في يدها يذكرها بفوات الأوان، فأمسكته وخلعته:

ـ قد ترغب في استعادة هذا.

لكن يداه غطتا يديها:

ـ لا.. لا أريد استرجاعه إلا إذا رغبت أنت في إعادته.

ألا زلت تحبيني ديلين؟

ـ أنا..

هزت رأسها بصمت.. غير قادرة على الرد.. الصراع بين قلبها وعقلها كان واضحاً في عينيها، لأن كليف سارع إلى اختوائها بين ذراعيه ليشدها إليه بقوة فتمتمت بصوت مخنوق على قميصه:

ـ كان سيقول لك.. فاضطررت للقول بنفسي قبل أن يفعل.

ـ وما هو شعوره نحوك؟

ـ لا زال يريدني.

الاعتراف خرج منها بضحكة مكبوتة.

ـ وأنتِ؟

ـ أوه.. لا زال بإمكانه دفعي إلى هذا.

ولفها خجل حارق، دفع العبرات إلى حلقها تسده.. لكنها تنفست عميقاً، وابتلعت الدموع.. بقدر ما كانت بحاجة إلى الراحة بين ذراعي كليف، لم تستطع بضمير مرتاح، أن تقبلها.. فأبعدت نفسها بحزم عن صدره:

ـ لن استطيع البقاء هنا كليف.. يجب أن أرحل.

رد بإصرار:

ـ لا.. أنت مخطئة.. عليك البقاء، وعليك مواجهته.. فالاختباء لن يفيدك.. فبعد الوقوع يجب أن تعودي إلى صهوة الجواد.

قالت محتجة:

ـ لكن ليس إلى نفس الجواد.

ـ ما الذي حدث ديلين؟ اعني بينك وبينه. قلت انه لم يعد يرغب بك. اعرف أن أخي فظ، لكنه ليس دون أحاسيس بالمرة كما وصفتيه.

ـ بطريقته الخاصة، اعتقد أنه تخلى عني بسهولة.. لكن لم يكن يعرف من أي ارتفاع سأسقط.. بعد أن طلب مني المجيء معه إلى مزرعته.. رفضت. ولكل الأسباب التي سبق وقلتها لك. وفي نفس اليوم رحل.

لم تعد ديلين الآن قادرة على تذكر ردة فعلها على تركه لها. وهذا له علاقة بطلبه منها انهاء العلاقة بينهما، والبقاء كصديقين.. فهي لن تستطيع أبداً أن تكون مجرد صديقة له. فلماذا لا يكون الانفصال نهائياً. ما تبقى كان مجرد ذكرى مؤلمة.. وهذا كله شرحته لكليف، لكن بتفاصيل قليلة، وأكملت:

ـ لم أكن أقصد أن أدخل بينك وبين بول.. أرجوك صدقني.. رد عليها بصوت هادىء:

- أصدقك.

- بول محق بأمر واحد.. لن تستطيع الزواج مني.. فكيف يمكن لك مواجهته وأنت تعرف أنه.. وانني..

قاطعها برفع ذقنها ليتفحص وجهها:

- لا.. لا تفكري بي.. السؤال هو: هل تستطيعي أنت مواجهته وأنت زوجتي؟

- ظننت نفسي قادرة.. لكن الآن.. لم أعد واثقة.

- نحن لم نكن أحبة مطلقاً.. ربما لو أننا..

جذبت نفسها من بين ذراعيه بحدة، فقد كانت تعرف ما سيقترح.. وهي لن تستطيع الاستجابة.. فلو فعلا ما يريد، تعلم جيداً أنها ستقارنه على الفور ببول. من قبل، كانت تنظر إلى الأمر وكأنه الالتزام الذي تريده.. لكنها الآن متأكدة أنها لن تسعد معه. فبدون حب ستكون علاقتهما مجرد رغبة زائلة.

لكن ألا تحب كليف؟ إنها تحتاجه يائسة، تحتاج إلى عطفه.. إلى لطفه، لكن هل تحبه؟ العواطف التي يثيرها فيها تخلو من الطعم والنكهة التي تحسها مع بول. وقالت تحتج على ما يلمح إليه:

- الوقت مبكر جداً لنا كليف.

- لم أطلب منك يوماً أن تفعلي شيئاً لي.. لكنني اطلب

منك الآن.. أريدك أن تبقي هنا هذين الأسبوعين كي تتمكني من طرد أخي نهائياً من رأسك وحياتك. وإلى الأبد.

رددت الخوف الكبير الذي كانت تحس به:

- وإذا لم يحصل هذا كليف؟

- عندها أعيدي إليّ الخاتم. ستكون فترة تجربة.. إذا أردت. وفي هذه الأثناء ستتابع حياتنا معاً كالعادة. وهذا يشمل الغداء اليوم مع هنري وزوجته.

هنري، وزوجته ايلينا، كانا زوجين ودودين دافئين، رحبا بديلين في منزلهما وكأنها فرد من العائلة. كخطيبة لكليف أخذا يسردان عليها قصصاً عن طفولته.. ومن المحتم أن يذكرا اسم بول في تلك القصص.

بعد الغداء، ساعدت ديلين المرأة العجوز في غسيل الصحون بينما سار كليف وهنري بين الأشجار خلف المنزل الخشبي البسيط... بساطة المطبخ جعلت ديلين تحس أنها في بيتها، وليست دخيلة.

غسلت ايلينا صحناً تحت الماء وقالت:

- أنت محظوظة ديلين.. سيكون كليف زوجاً متفهماً.

- اجل، وهذا ما اعتقده.

- لا يمكن لأخوان أن يكونا مختلفان أكثر من كليف وبول.

حين كانا طفلين كان الاختلاف صارماً. لم يتعلم بول أبداً مشاركة أخاه في العابه.. فما له له... والويل لمن يحاول اللعب بشيء يخصه! يقع كل غضب عائلة دارسي على رأسه. أما كليف فكان يتخلى له عن ألعابه، له أرق قلب عرفته. حتى الحيوانات الضالة كانت تجد طريقها إلى بابه، فإذا وجدها مصابة يأخذها إلى بول.. و...

- إلى بول؟

- أجل.. ان له يدان شافيتان. كليف يجد الحيوانات المتألمة ويأخذها إلى بول ليشفيها، لكن كليف من يحبها.. ما عدا مرة واحدة.. دهس فيها بول جرواً بسيارته، فأصلح له قدمه المكسورة وجاء به إلى البيت معه.. وكان الكلب الوحيد الذي اعرف انه سمح له بالنوم في البيت إلى أن مات الكلب من طعنه في السن.

- منذ متى؟

- منذ أربع سنوات تقريباً.. ولم يعد لتربية الكلاب بعده.. عكس كليف الذي يهوى تربية الكلاب.. وكما قلت، أنهما مختلفان اختلاف الليل عن النهار.. ولا يزالا.

والاختلاف كليّ.. ولن تستطيع ديلين أن توافق على شيء أكثر من هذا صحة، لكنها لم تكن واثقة أنها تريد أن تعرف هذا القدر عن الرجلين.. فبعد أسبوعين قد تكون خرجت من

حياتهما معاً. بعد أسبوعين قد تكون تحمل ذكريات تكفيها العمر كله، وتبتعد بها. وتمنت لو أنها لم توافق على البقاء. لكنّ كليف اعطاها الكثير ولم يطلب سوى القليل.

ودعت ديلين الزوجين واعدة بزيارة أخرى قبل رحيلها ومع أن كليف لاحظ شرود ذهنها إلا أنه لم يعلق.

أعادها كليف عبر طريق مختلفة إلى المنزل.. كانت أطول مناظرها أجمل، مليئة بالحياة البريّة والطيور الملونة التي تطو فوق السبخات المائية...

مع كليف، تتمكن ديلين من الاسترخاء..

لكن حين تكون مع بول، لا تكون واثقة مطلقاً متى تتهاوى الدنيا من حولها.

* * *

- ٥ -

لعبة.. بين طفلين

كانت ديلين تنزل السلم حين التقت بسوزان واردن تصعد.. لم تكن قد شاهدت المرأة طوال النهار، حتى حين عادت مع كليف وصعدت غرفتها تستحم لم تكن المرأة موجودة. توقفت سوزان عند فسحة السلم الأولى تنظر بإعجاب إلى فستان ديلين الحريري المثني الأسفل:

- تبدين رائعة ديلين.

- شكراً لك.

- فهمت من بول أن يومك كان مليئاً.. غداء عند هنري.. جولة في مصنع توضيب الفواكه، وكل هذا على ظهر جواد.

- أجل.. هذا صحيح.

- ارجو أن تكوني قد أحببت إيلينا.. إنها صديقة عزيزة. وهي أم ثانية لولديّ.

- إيلينا وهنري جعلاني أحس وكأنني فرد من العائلة.

- إنهما كالعائلة لنا.. جايسون وهنري كانا كأخوين، لجايسون وهو والد بول. وقدم لي هنري الكتف الصلبة للاستناد إليها حين فقدت جايسون فجأة، وإيلينا تولت بكل بساطة ادارة المنزل ورعاية بول إلى أن استعدت نشاطي.

- استطيع تصور هذا.

- يا إلهي.. وصل كليف وأنا لم أصل بعد إلى غرفتي..

- مرحباً أمي. أنت آتية أم ذاهبة؟

وقف كليف وراء ديلين يضع يده بعفوية على كتفها وضحكت سوزان.

- بل صاعدة.. سأراكما على الشرفة بعد ثلث ساعة. حضرا لي الشراب.

- سنفعل.

والتفت إلى ديلين بعد ذهاب أمه:

- رائحتك رائعة حبيبتي!

حبيبتي؟ لم يستخدم هذا اللقب معها من قبل.. ومن الصعب أن تعترض، كونها خطيبته.. فلماذا تحس بالقلق؟

ردت تشرح له:

- وجدت بعض الأملاح المعطرة للحمام، فاستخدمتها.

- إنها رائحة مثيرة.. وكذلك أنت.

لطالما كان كليف رقيقاً.. لكن لم يكن مغازلاً عاشق كما هو الآن. فهل يحاول وضع اقتراحه هذا الصباح موضع التنفيذ؟ وصدمتها سخرية الموقف! أحد الأخوين صديق عزيز يريد أن يصبح الحبيب والزوج.. والآخر الحبيب السابق لا يريد سوى أن يعود صديقاً.. في هذا نوع من المزاح الغريب.. في مكان ما. ومن المؤسف أن لا تعرف أين.

تنهد كليف ثم لف يده على خصرها بتملك:

- هل قلت لك كم أنت جميلة؟

- لا.. لكن غروري سيحب فعلاً أن يسمعك.

- أنت فعلاً جميلة. ولو كنت أكذب فليحولني الله إلى ضفدعة.

وأصدر صوت نقيق في حنجرته.. فانفجرت ديلين بالضحك. وتلاشى التوتر عن وجهها.. تقدم كليف يفتح لها باب الشرفة فخرجت مبتسمة، لكنها عادت إلى توترها السابق حين وجدت نفسها تتعرض إلى نظرة متفرسة ساخرة.. وأحست أنها تحت مراقب حيوان مفترس على وشك الانقضاض عليها في أية لحظة. لكن ذراع كليف كانت على خصرها لتحميها من أي هجوم.. حين رفعت نظرها إليه

عادت إليها الابتسامة، وليدة احساس بالراحة.

وجه كليف كلامه إلى أخيه:

- أليس من تقاليد المنزل بد أن أول الواصلين على الشرفة يأخذ دور الساقي؟

ظاهراً.. بدا بول هادئاً، يتمتع بالعصير الكوكتيل امامه، بينما كانت الشمس تغيب ببطء، تاركة لطخة قرمزية في السماء، شعره كان قائماً لتبلله أثر حمامه.. لونه الذهبي الغني غير سوي بطريقة مثيرة. وعكس كليف، لم يرتدي سترة بل قميص حريري بني مرفوع الأكمام، ومفتوح الياقة تحته بنطلون بلون عاجي.. لكن من تحت هذا القناع الهادىء، أحست ديلين بالغضب العنيف الجارف.. ينتظر فرصة للانطلاق. وأشار بيده إلى كوبين جاهزين فوق صينية:

- سمعت ديلين تضحك، فعرفت أنكما قادمان، وحضرتهما.

اعطته ديلين الرد الدمث المتوقع منها..

- شكراً لك.. هذه ايماءة كلها تفكير.

لم يتنحَ بول عن الطريق حين تابعت وكليف طريقهما إلى الطاولة. وكان لوجوده وقع قوي على نفسها. وتمنت لو أن لها نوع من الدروع يحميها من عينيه الشرستين. والتقط لها كأسها ثم استدار ليصبح في مواجهتها فرفعت رأسها متحدية..

وقالت بحدة:

- توقف عن النظر إليّ هكذا بول.. كليف عرف كل شيء.. لقد قلت له.

تحولت نظرته الحادة بسرعة إلى يدها حيث الخاتم اللماع قبل أن يحولها بسرعة إلى كليف.. وببرود ارتشف قليلاً من شرابه وقال:

- كيف تلقيت الخبر يا أخي الصغير؟

هز كليف كتفيه بخفة:

- لم يغير هذا أي شيء.. مهما كان بينك وبينها منذ ستة أشهر، فهذا من الماضي.. وليس له أية علاقة بالحاضر.

نظر إليها بغضب واشمئزاز:

- لا بد أنك أخبرته قصة هائلة حلوتي..

- بل قلت له الحقيقة.

أكد كليف كلامها:

- أعرف كل شيء.. كيف التقيتما.. وكم امضيتما من وقت معاً. ولقد سببت لها بصدمة قوية.. لكن الأمر انتهى الآن.

رفع بول رأسه ليتفحصها عبر نصف اعماقة:

- سببت لك صدمة.. صحيح؟ أهذا ما قلتيه له؟

ردت وأصابعها تلتف على كأسها، المتساوي في البرودة

مع تلك الأصابع:

- انا واثقة أن المسألة مجرد اختلاف في التحديد، ووجهات النظر..

التفت إلى كليف:

- انها لي كليف.. وأريد استرجاعها.

هكذا بكل بساطة.. وكأنها لعبة يختلف عليها طفلان...! ارتفع رأسها بحدة وأخذت نيران السخط تلمع في عينيها الزرقاوين.. لكن أياً من الرجلين لم يتنبه لها وقال كليف:

- لم تستطع الحفاظ عليها، فخسرتها، والمسألة الآن مسألة من يجد الضائع يحتفظ به.. وادعائك القديم لم يعد يعني شيئاً. أنا من وجدتها.. ولن أتخلى عنها.

صاحت ديلين بغضب:

- هذه ليست لعبة! ولن تلعبا بي لعبة شد الحبال. لا أحد منكما سيفعل!

صاح بول بحدة:

- ابتعدي عن هذا.

- لا!

اتخذ كليف موقفاً إلى جانبها:

- معها حق.. لن تستطيع استرجاعها لأنها ليست لي

لأعطيها لك.. فهذا خيارها وحدها.

- في هذه الحالة، أعيدي له خاتمه الآن ووفري الوقت.

ردت بصوت كالفحيح:

- كم هذه عجرفة مثالية منك. وما الذي يجعلك تعتقد أنني أفضلك أنت عنه؟

استدار بول ليواجهها وتقدم ليصبح على بعد قدم. تلك الهالة المغناطيسية القوية التي تحيط به، اجتذبتها إلى حقل قوته، لتوقعها في فخ محكم وكأنه احتواها بين ذراعيه تماماً. رائحته العطرة النظيفة الدافئة اقتحمت ركنيها، بينما أرسل نشاطه وحيويته الدم ينتفض بقوة في عروقها، مطلقاً كل احاسيسها من عقالها. وردّ بصوت خشن كمداعباته:

- أتريدين حقاً أن أجيب على هذا السؤال أمام كليف، يا حلوتي؟ أتريدين أن أذكرك بأول مرة عانقتك فيها؟ أتريدينه أن يسمع كيف كنا نقضي الليالي في الحديقة تحت النجوم، لا رفيق لنا سوى نسيم الليل؟

- هذا يكفي!

كانت شهقة رجاء كي يتوقف عن اغوائها بإثارة الذكريات. فلمعت في عينيه ومضة رضى نمرية.. فلقد حقق هدفه.. وجعلها تصرخ طلباً للرحمة، فهو لا زال يملك القوة ليجعلها تريده، حتى دون الحاجة لأن يلمسها.. كل ما

عليه أن يفعل هو أن يفكر بمغازلتها في نفسه، أن يعدها بعينيه، ويمازحها بصوته.. وها هي ترتجف بالرغبة الحادة.

قال كليف بهدوء:

- حصلت على الرد بد.. انها لا تريدك.. فلا تذلها بعد الآن بذكريات علاقة تريد أن تنساها.

رد بول باسترخاء:

- لست واثقاً أن هذا ما تريده.. ولا هي واثقة!

ارتجفت ديلين، لكن كليف استوعب الرد:

- أريدك أن تكون شاهدي في الزواج.

- لا بد أنك مجنون!

- أمامك سنة لتعتاد على الفكرة، أنت أخي.. ولا أريد أحداً غيرك أن يكون شاهدي.

صدمت ديلين لهدوئه.. سرعان ما أطبق فم بول بغضب وحشي ثم قال متهدجاً وفتحات أنفه تنتفخ.

- إذا كنت تظن أنني سأقف إلى جانبك وهي تتقدم إلى المذبح.. لو تزوجتها فكن على ثقة أن عملاً طارئاً سيكون بانتظاري في مكان ما من العالم مهما كان الموعد.. ولن أتقبلها مطلقاً كزوجة أخ لي.. كليف.. افهم هذا منذ الآن!

فتح باب الشرفة، ودخلت سوزان لتنضم إليهما والبسمة لا تفارق فمها، لكن ديلين لاحظت القلق المفاجيء الذي ظهر

في عينيها. وقالت بلهجة رقيقة متعمدة:

- لدي شعور أنني دخلت أرض معركة... أتتجادلان في شيء؟ كليف أعطني كأس شراب مع كثير من الثلج.

- حاضر يا أمي.

وأكملت سوزان:

- حسناً.. هل سيخبرني أحد ما الذي يجري أم أنكما ستردان عليّ بالصمت؟

قال بول:

- حين كنا أطفالاً كنت دائماً تنجحين في حل خلافاتنا.. أترين.. كنت أعرف ديلين قبل أن يعرفها كليف.. ولست مستعداً لأن أتخلى عن حقي الأولي بها.

واضح.. أن هذا آخر ما توقعت سوزان أن تسمعه أو تفكر به.. نظرتها المذهولة توجهت فوراً إلى ديلين. وسألتها:

- أنت وبول تعرفان بعضكما قبل الآن؟

- أجل.. لكن ليس له أي حق معي.. فلقد إفترقنا منذ عدة أشهر.

نظرت سوزان إلى ابنها متسائلة:

- عدة أشهر؟

- هاك شرابك يا أمي.

اعطاها كليف الكأس المثلج وقال:

- لم تكن ديلين تعلم أن بد هو أخي إلى أن وصلت إلى هنا. ولهذا لم يذكر أي منا هذا الأمر مسبقاً. لقد قالت لي الحقيقة اليوم، لخوفها أن يسبب هذا المشاكل.. لكن هذا لا يهمني.

تدخل بول:

- أنت مخطيء كليف.. لأنني سأستردها.

صاحت به أمه:

- ديلين ليست لعبة يا بول.

- وهذا أفضل لي.. لأنك لن تصري الآن أن أشارك كليف بها، والتوى فمه بيسمة ساخرة. فأصلحت له سوزان كلامه:

- أظن الأمر معكوساً.. فهي مخطوبة لكليف.

- لن يدوم الأمر طويلاً.. سأستردها.. ولي الأفضلية على كليف، لأنني أعرف كل مواطن ضعفها.. وكل ما عليّ أن أفعل، هو أن استغل هذا الضعف حتى آخر مداه.

ورفع كأسه نحو ديلين، بتحية صامتة، تعد بأن ينفذ تهديده.. وتصاعد عدد دقات قلبها بجنون، لكنها ردت بدفاع ضعيف:

- بإمكانك أن تجرب.. بول.

واعلنت سوزان:

- لقد رتبت أمر احتفال لإعلان الخطوبة بعد سباق ليلة الخميس.. وإذا كنتما ستبقيان متمسكان بخناق بعضكما، فمن الأفضل تأجيل الإعلان إلى أن تحلا الخلافات بينكما.

بدبلوماسية لم تعلن سوزان مَن من ولديها له الحق، أو من سيكسب، أو من تدعم. حتى أنها لم تلمح إلى أن خطوبة كليف لديلين في خطر. كل ما اعلنت عنه هو الرغبة في أن يكون حفل الخطوبة حفلاً سعيداً.. وقال كليف يطمئنها:

- لا تقلقي أمي.. لن نتقاتل لأجل هذا.

ارتشف بول قليلاً من شرابه وقال ببرود دون أن ينظر إلى كليف:

- لا تعتمد على هذا كثيراً.. يا أخي الأصغر!

رد كليف:

- أنا واثق.. أن القرار يعود لديلين.. ولن تقرر مطلقاً على أساس نتيجة أي قتال بيننا.

سخر منه بول:

- أيها الأخ المتعقل العملي.. أحياناً يدهشني أننا قريبان.

زجرته أمه:

- هذا لأنك حاد الانفعال.. وعنيد جداً أحياناً.

رد ببرود:

- ولهذا أكسب دائماً.. لأنني لا أدع شيئاً يقف في

طريقي. لذلك، استمري في تخطيطك ليوم الخميس للاحتفال بخطوبة مؤقتة بين كليف وديلين... نحن بحاجة إلى عذر للاحتفال. هل من اعتراض؟

وجه سؤاله رافع الحاجب إلى ديلين. فردت بقلق:

- بل مئة اعتراض.. لكن لا بأس بالاحتفال.. ولا أحد سيصغي إلى ما سأقول على أية حال.

- ربما لأنك لا تقولين ما يدور في رأسك وما تشعرين به حقاً.

صاحت به:

- وكيف تعرف حقيقة مشاعري؟

صوت زمور سيارة انطلق بقوة مرتين.. وتبعه صفق باب، ثم دخل جاك ماثيون يقول لاهثاً:

- بول! لقد انهارت أحد الفرسات في الاسطبل.

استدعينا البيطري منذ أكثر من نصف ساعة.. ولادتها متعسرة، طلب مني جوني أن أبلغك في الحال لتحضر.

بينما كان جاك يتكلم بسرعة، كان بول قد وصل الفناء إلى جانبه، وصاح من فوق كتفه:

- لا تتوقعوا حضوري للعشاء.

حين لم يعد بول للعشاء طلبت سوزان من الطباخة تحضير بعض السندويشات وإبريق قهوة وأرسلتها إلى اسطبل

التوليد.. بعد العاشرة بقليل.. اقترح كليف أن يتمشيا في ضوء القمر، ووافقت ديلين.. كان الجو هادئاً في الخارج، الهواء فيه دفء منعش.. الأشجار الباسقة المليئة بالنباتات المتعريشة كانت تتسبب بظلال كثيف تحت ضوء القمر. كل شيء كان ساكناً وهما يسيران يداً بيد. لكن نظرها بقي يتجه دون إرادتها نحو الاسطبلات.. بول لم يعد بعد. ولم تستطع منع نفسها من التساؤل كم سيغيب. حتى وهو بعيد عنها، لا تستطيع إخراجه من تفكيرها.. وتنهدت.. فسألها كليف عن سبب تنهيدها:

- متعبة؟

- قليلاً.

- أتودين الرجوع أم نبقى هنا قليلاً؟

- بل أفضل العودة إلى الفراش.. إذا كنت لا تمانع.

- لا مانع.. كان يومك متعباً.. بطريقة أو أخرى.. أتحسين براحة أكثر بعد أن تمشينا؟

- أجل.. كثيراً.

وهما يقتربان من الشرفة، لاحظت ديلين نوراً صغيراً يتوهج بالاحمرار تحت ظل القناطر. بقيت محتارة إلى أن تناهى إلى أنفها رائحة التبغ المحروق وعلمت أن هذا ما هو إلا رأس سيكارة مشتعلة.. إذن بول هنا على الشرفة.. وغاص قلبها.

كان يسند كتفه على الجدار الداخلي للقنطرة، يحدق إلى الليل.

استقام بول في وقفته حال أن دخلا الشرفة عبر قنطرة أخرى مما لفت نظر كليف إليه.. فتوقف ويده تشتد حول كفي ديلين.

- ماذا جرى بالفرسة بد؟

لم يرد فوراً على سؤال كليف، ورمى السيكارة إلى الحديقة.. ثم قال:

- ماتت منذ نصف ساعة.

- امر مؤسف.

وقالت ديلين بصوت منخفض:

- أنا آسفة لها بول.

رد عليها بحدة:

- هل أنت حقاً آسفة؟

ردت بسرعة:

- أجل.

التفت يواجهها.. وكأن قوة غير مرئية تمتد عبر المسافة نحوها:

- إذن تعالي وواسيني.

صوته كان دعوة لها إلى بين ذراعيه.. وللحظات مشحونة كادت تندفع دون وعي إلى إغوائه.. كل أعصابها كانت

www.elromancia.com

متوترة لتقبل بأمره.. وتقطع المسافة نحوه. وخرج صوت مخنوق من حلقها..

لكنها التفتت بحدة نحو مدخل المنزل، وسحبت يدها من يد كليف، وأطلقت تحية مساء مخنوقة، كي تخفي اضطرابها.. ركضت إلى الداخل، صعدت السلم ثم إلى غرفتها.. وسمعت كليف يلحق بها.. فدخلت حمامها الخاص وأدارت الماء كي لا تسمع قرعه على الباب...

جبانة... مع ذلك لم تكن تملك الشجاعة الكافية لمواجهة كليف.. حتى بعد أن ذهب إلى غرفته، بقيت الماء تجري لتغطي صوت نحيبها الجاف الذي كان يمزق صدرها.. لكن دون دموع.

* * *

- ٦ -

لو تعلمين ما سأفعل!

الصباح التالي كان يوم أحد. حين عادت ديلين مع كليف وأمه من الكنيسة.. لم يكن بول موجوداً. وتناول الثلاثة الغداء دونه.. بعد الظهر، سارت ديلين وكليف إلى حظيرة التوليد.. لكن بول لم يكن هناك كذلك.

أخذها كليف بعد ذلك في نزهة على الجياد ليقدمها إلى بعض من رؤساء العمال وعائلاتهم ممن يعيشون فوق الأملاك. وبدا لها أن عطلة الأسبوعين هذه تسير تماماً كما خططا لها قبل أن تصل وتكتشف وجود بول.

مرت، بعد ذلك، ثلاثة أيام دون أحداث تذكر.. تهديد بول باسترجاعها ثبت أنه لا جدوى له. ومنذ تلك الليلة في الشرفة، لم تكلمه ديلين على حدة مطلقاً.. وفي الأمسيات، لم

www.elromancia.com

يحاول مطلقاً، جرها بعيداً عن رفقة كليف.

أدركت بألم، أنها أصيبت بخيبة أمل. لقد أرادت منه أن يلاحقها ويحاول كسبها من جديد. لا يعني هذا اعتراف منها بأنها تريده أن ينجح.. وهي تسبح في الصباح التالي في البركة، أخذت تتسابق مع نفسها لتصل إلى الحافة الأخرى، حين لمست يدها الحافة، توقفت لاهثة، ورفعت رأسها كي يتدلى شعرها الأسود إلى الوراء.. وسمعت كليف يضحك:

- مع من كنت تتسابقين؟

نظرت إليه بدهشة:

- ظننتك سترتدي ثوب السباحة وتلحقِ بي إلى هنا.. أم تنوي السباحة بكامل ملابسك؟

- لست محظوظاً اليوم، فأمي لديها لائحة طويلة للأشياء التي تلزمها لأجل الحفلة غداً، وكلفتني بشراءها. بدلاً من السباحة ألا تريدين الذهاب معي إلى البلدة؟

ترددت ديلين قليلاً.. اليوم حار ودبق، ولهذا مالت للسباحة بعد الإفطار.. توقعها لترك الماء الباردة والذهاب إلى البلدة، والسير في مخزن مكتظ مخنوق لم ترقها.

- أفضل أن أبقى هنا.

- لا ألومك.. لن أتأخر.

- أسرع في العودة.

اختفى عبر القناطر إلى الباحة الأمامية، بعد لحظات سمعت سيارته تنطلق. فأكملت مرحها في البركة لفترة أطول إلى أن تعبت، فتسلقت إلى الخارج.. جففت الماء عن جسدها وشعرها بمنشفة طويلة، ثم استلقت فوق مقعد طويل لتترك الشمس تجفف ثوب السباحة.. ارتدت نظارة شمس، وفتحت كتاباً لتقرأ.

الحركة والشمس الحارة، جعلاها تنعس، ولم يكن الكتاب قد شد اهتمامها. فوضعته جانباً وخلعت النظارة لتضعها تحت المقعد، وانقلبت إلى معدتها لتضع ذراعها تحت رأسها كوسادة.

- ألم يقل لك أحد من قبل أن لا تنامي في الشمس؟

صوت بول أجفلها، فاستيقظت من شبه اغفاءة. ففتحت عينيها لتصاب بدوار من بريق الإبتسامة البيضاء في الوجه الأسمر:

- لم أكن نائمة.. كنت فقط..

قاطعها ساخراً.

- نائمة..

ردت متحدية:

- وماذا لو كنت نائمة؟

- يجب على الأقل أن تضعي أي نوع من المستحضرات على هذه البشرة الجميلة.

شيء بارد مرّ فوق ظهرها، فشهقت للصدمة. وبدأت تنهض لكن يد بول دفعتها إلى الأسفل إلى وضعها السابق. وبدأ يدلك السائل المضاد للشمس على ظهرها. فقالت محتجة:

- لا احتاج إلى هذا في الواقع.

- اضمتي.. وتمتعي.

ثقل يده بين أكتافها دفعتها إلى الأسفل أكثر. حين وصلت يده إلى أسفل ظهرها، سألته بتوتر:

- أليس لديك مزرعة تديرها؟ ألا يجب أن تكون الآن في مكان ما.. تعمل.

- كنت أعمل.. لكنني اكتشفت أنني جائع.. ألم تشتاقي لي؟

ردت كاذبة:

- لا.. لم أشتق إليك.

- كنت متجهاً إلى المطبخ لأسطو على البراد حين رأيتك نائمة في الشمس، وكل بشرتك معرضة لحرارتها، لامعة ذهبية.. بدوت لي شهية هكذا.. ربما يجب أن آكلك.

شهقت ديلين لما أرسلته مضامين كلامه من موجات اجتاحتها. فصاحت به وكأنه بالفعل سيأكلها:

- ماذا تفعل؟

وخرج صوت غاضب من حنجرتها مليء بالذعر.. لكن

يداه استمرتا بعملهما.. أخيراً توقفت عن المقاومة.. وقال لها:

- هذا السائل يترك اثراً على الثياب.. فانتبهي.

تمتمت ساخرة:

- كم أنت عميق التفكير.

- وهذا ما ظننته.

لمساته الحميمة أزعجتها.. عليها أن لا تبتلع الطعم.. أن تدعي عدم الاكتراث به.. لكنه كان يزداد جرأة في تدليكه وأصابعه تمتد أكثر مما ينبغي لها، فهمست مختنقة:

- هل تسمح بأن تتوقف؟

- أتوقف عن ماذا؟

صاحت به ترفع رأسها:

- عما تفعل.

وحاولت دفع يده عنها.. فقال ساخراً:

- ألم يعجبك التدليك؟

- ما تفعله قد يراه أحد من المنزل..

- لا يمكن لأحد أن يرانا.. إلا إذا تحركت أنا. أتريدين أن أتحرك؟

- أجل.. لا!

لم تكن تدري ماذا تريده أن يفعل، لذلك فعل ما أراد..
فتوسلت إليه:

- بول.. أرجوك أن تتوقف. ماذا لو عاد كليف..؟

- وهل خرج؟

- تعرف أنه خرج.

- بصراحة.. لم أفكر به.. أتعلمين ما قد يفعل لو وجدنا هكذا؟

- لا...

- سيكون متفهماً ويسامحنا.

في همساته سخرية متعمدة.. وأكمل بنفس اللهجة:

- أتعلمين ما قد أفعل أنا لو وجدتك هكذا مع كليف؟

- لا.

لم يكن ردها صوت بمعنى الكلمة، بل نفس مخنوق. ورد عليها بصوت عميق أجش:

- سأضربه حتى أسحق عظامه لمجرد تجرؤه على النظر إليك.. أو لمسك كما أفعل.. فأنت لي.. ولن أشاركك مع أحد. ولا حتى أخي.

اندست ذراعه تحتها ليرفعها إليه يسحقها على جسده، وكأنه يحاول امتصاص كل جسدها في جسده.. العناق الوحشي، كان مؤلماً.. لكن بحلاوة. وأحست بأنفاسه

اللاهثة تحرق بشرتها.. وسألها بهمس:

- أيجعلك كليف تشعرين هكذا؟ هل ترتجفين كالطين الحار بين ذراعيه؟

ردت بضعف:

- لا.

- أريدك ديلين.. ولا يهمني أكان هذا في وضح النهار وتحت أشعة الشمس الذهبية أم في عتمة منتصف الليل المخملية.

ذكر كليف أعاد لها بعضاً من تعقلها، فقالت بمرارة:

- ما أنا لك سوى لعبة تتركها وتنساها إلى أن يلتقطها غيرك.. أنت لا تريدني حقاً.. أنت في الواقع لا تريد سواك أن يأخذني.

- هذا غير صحيح.. وأنت تريدينني.. لا تنكري.

أحست بألم في حنجرتها جعل الكلام صعباً:

- لن أنكر.. لكن كل ما ستقدمه لي هو رغبة وتنتهي.. هوى عاصف فج، ومجنون، يبقى متوهجاً طالما هو دائم.

اشتدت عضلات فكه.

- إذا لم يكن ما بيننا سوى الرغبة، فأنا قانع بها..

وانقض عليها بفمه.. لكنها تجنبته... وأحست بحرارة الدموع في عينيها، وتمنت أن لا تتساقط:

ـ هذا لا يكفيني.. أنا لست مجرد وعاء لحاجات حيوانية بالنسبة لكليف.. إنه يهتم بي كإنسانة.

حضرت نفسها لتهجم جسدي.. لكنه هاجمها بكلمات ساخرة:

ـ أنت لست سوى حيوان يتيم شارد جاء به كليف إلى المنزل. صحيح أنه يهتم بك.. وسيهتم بنفس القدر بمن سيجيء بها في الشهر القادم أو السنة القادمة. وإذا خسرك في الغد، لن يتألم كثيراً... فأمامه متشردات كثيرات يلتقطهن.. وفي قلبه ما يكفي من حب لهن جميعاً.

جادلته بشجاعة:

ـ معه، احصل على الحب.. على الأقل. فلماذا أرضى بالجزء بينما أستطيع الحصول على الكل؟

ـ أهذا ما تعتقدي أنك ستحصلين عليه من كليف؟ الكل؟

اختنقت وهي تهمس:

ـ أجل.

ـ لا.. لست مقتنعة.. فكل ما ستحصلي عليه منه هو اللب الطري، المتصف الرخو كالعجين.. وهذا لن يكفيك.

ـ لكنه سيسعدني أكثر منك. وهذا هو الأساس، أليس كذلك؟

ولفت ساعديها على جسدها مبتعدة عنه.. فأحس بما

تعنيه هذه الحركة، وسارع إلى أن اشاحة نظره عنها:

ـ لأجل الله.. ضعي شيئاً على جسدك!

استدارت مبتعدة.. ولفت نفسها بالمنشفة، وسمعته يكمل:

ـ لكننا لم ننته بعد.. أنت وأنا.. ليس بعد!

كان هذا انذاراً لم تخطيء أبداً في تفسيره.. وحملته خطواته الواسعة عنها نحو المنزل.. حين ابتعد، نزعت المنشفة عنها ورمت نفسها في الماء. وسبحت بسرعة عبر البركة، كي تطفيء لهيب مشاعرها والغضب الذي احرقها.. وتلاشى الألم الذي كان يعتصر معدتها.. لكن الألم في قلبها رفض أن يتحرك من مكانه.

مساء الخميس، تناول الجميع عشاء مبكراً خفيفاً لترك المجال للطعام والشراب الذي سيقدم في الحفلة، بعد أن ينتهي السباق السنوي الذي يقام في المزرعة.. وبقيت ديلين متوترة إلى أن غادر بول المنزل، فسألتها سوزان:

ـ أنت صامتة بشكل رهيب ديلين. بماذا تفكرين؟

ـ أنا.. كنت أحاول أن أقرر ما إذا كنت سأرتدي فستاناً أم بنطلوناً وقميصاً الليلة.

ـ هذا يتوقف على ما إذا كنت ستذهبين إلى السباق على ظهر جواد أم في السيارة.

- أفضل الجواد.

- إذن من الأفضل أن تصعدي لتغيري ملابسك كي نخرج بينما أحضرّ الجياد وألجيء بها إلى أمام المنزل.

حين عادت ديلين إلى الطابق الأسفل، كان كليف ينتظر. والجياد في الخارج... وقدم رجل مسن اللجام وساعدها على امتطاء «برايت» الكستنائي. وسألت حين توجها نحو المرجة:

- انت هو جاك؟

- في حلبة السباق، كما اعتقد.

تحرك الجواد الرتيب وصحبه كليف السهلة، جعلاها تسترخي.. وسألت:

- كم سيدوم هذا؟ اعني السباق؟

- حتى تغيب الشمس.

- ايشابه هذا «الروديو» الأميركي؟

- أتعني ترويض الجياد وركوب الثيران؟ لا.. إنه مجرد استخدام الحبال لربط الابقار، وسباق خيل عادي.

وصولهما إلى مكان السباق لم يتم دون أن يلحظه أحد. وهو يقودها إلى حيث سيتركا جواديهما، كانت التحيات تنهال عليهما من كل صوب. بعض من الموجودين كانت ديلين قد قابلتهم خلال هذه المدة، لكن معظمهم لم تشاهدهم من قبل.. وعادا إلى قرب سياج الحلبة، حيث أجلسها على أعلى

الواحه الخشبية.

عند طرف الحلبة الأبعد شاهدت إيلين الجواد الرمادي المألوف، وعلى صهوته بول، يتحدث إلى فارس آخر. فسألت:

- هل سيشارك بول في المسابقات الليلة؟

- لا.. لم يشارك فيها منذ سنوات.. عادة يشارك في التحكيم.

- ولماذا لا يشارك؟

ضحك كليف:

- لأنه يربح دائماً.. حسناً.. ليس دائماً.. لكنه منافس قوي ويحب الربح. وبما أنه مالك المزرعة، لا يؤمن بأن هذا من حقه.. فتوقف عن المشاركة!

وبدأت الجياد تدخل بفرسانها إلى الحلبة عبر بوابة قريبة.. وأدخل ثور ضخم الجثة إلى الممر، بينما حضّر أول متباري جواده قرب الممر، وبقي بول والحكام داخل الحلبة للتحكيم وحساب الوقت.. بانتهاء مباراة الربط بالحبال، فاز جاك مائيون. وواقع أن الفوز كان لشخص تعرفه جعل ديلين أكثر اهتماماً.

وتقدم بول نحوهما على صهوة جواده:

- هل تتمتعين بالمباريات؟

- أجل.

قال كليف:

- ذكر لي جاك أنك ستجمع الماشية الشاردة من الوادي.

- أجل سنبدأ يوم الاثنين.

- أظن ديلين ستجد الأمر مثيراً.

- أجل.. سأرى ما أستطيع فعله كي تأتي معنا يوم الثلاثاء.. أيناسبك هذا ديلين؟ هزت كتفيها.

- إذا كان لا بأس مع كليف.

رد كليف:

- الثلاثاء موعد رائع.. وستحبين الذهاب ديلين.. أليس كذلك؟

صاح رجل من الحكام ملوحاً:

- هاي.. بول! جاهزون لمباراة التحطيب بالفأس.

- أراكما فيما بعد إذن.

وضرب جانبي جواده لينطلق به بعيداً عن السياج.

* * *

- ٧ -

تحبين من؟

مرت الفرق المتنافسة كلها، وانتهت الألعاب، وديلين تراقب شاردة الذهن.. كل حواسها كانت متجهة إلى الرجل فوق الجواد الرمادي.. حتى في تصميمها أن لا تفعل، كانت تفكر به.

قبل انتهاء المباريات سألها كليف:

- أتريدين العودة على الجياد؟ يمكنني أخذ شاحنة هنري فنصل إلى المنزل بسرعة، لتغيري ثيابك قبل وصول أحد إلى حفلتنا.

- وماذا عن الجياد؟

- سنرسلها في أحد مقطورات الجياد.. وسيعتني جاك بها.. إذا عدنا عليها ستتأخر.

www.elromancia.com

بدا أنه يعتقد أن هذا أمر مهم. لكن ديلين لم تكن تنظر إلى حفلة اعلان الخطوبة بتشوق.. ولن تعارض الوصول متأخرة..

- لماذا لا نسأل هنري إذا كان يعيرنا سيارته.

- انتظري هنا لأجده.

حين انتهت اللعبة، التي فاز بها بول وجاك، ولم يعد كليف بعد، نادت ديلين جاك وهو يمر قربها:

- أرأيت كليف؟

- أجل.. انه في شاحنة هنري، تلك السوداء خلف مقطورة الجياد البيضاء.

- رأيتها.. شكراً لك.

واتجهت نحوها، كان عليها السير بين الشاحنات والمقطورات، والخيل بفرسانها وهي تتقدم.. أجفلت ملتفتة بدهشة حين سمعت صوتاً يناديها:

- كليف يبحث عنك.

ردت على بول:

- وأين هو؟

مد لها يده

- اصعدي معي وسآخذك إليه.

لكنها لم ترغب في أن تكون قربه على ظهر الجواد.

- لا.. شكراً لك.. قل لي أين أجده فقط.

- إنه قرب سيارة هنري.. لكن من الأسهل الذهاب معي فهناك الكثير من الخيل مضطرة لأن تتجنبيها.

لكنها تجاهلت اقتراحه ومرت من تحت عنق الرمادي واكملت طريقها. ولم تتقدم ثلاث خطوات حتى أحست بذراع قوية تلتف حول خصرها، وترفعها عن الأرض.. قاومت بغضب وهو يجلسها أمامه على السرج، وصاحت به غير مدركة مدى ارتفاع صوتها:

- انزلني أيها القرد الكبير!

وسمعت راعيان يضحكان.. وصاح أحدهما:

- أهناك متاعب يا معلم؟

أصبح لون ديلين قرمزياً من الخجل والاحباط، خاصة حين التفتت بنظرة بول الساخرة.. وتجاوب مع مزاجهما:

- ما رأيكما بهذه المتاعب؟ جئت راكباً جواداً، يقرب من اللون الأبيض، اخطط لحمل سيدة جميلة عليه، وهذا ما أحصل عليه.

صاحت به:

- خذني إلى كليف.

- قلت لك سأفعل.

واندفع الجواد لضربة قدميه بسرعة، قبل أن يخفف من

انطلاقه بشد اللجام. وبقيت ديلين متصلبة في قبضة بول الشديدة، لكنها لم تكن في وضع يمكنها من موازنة نفسها وكان عليها أن تعتمد على دعمه.. توترها كاد يعميها على رؤية كليف قرب السيارة.

تقدم كليف حين أوقف بول جواده ليرفع ديلين عن ظهر الجواد وينزلها إلى الأرض:

- ها أنت... شكراً «بد».

- أراكما في المنزل.

استدارت ديلين نحو كليف.

- ما المشكلة؟

- أية مشكلة؟

- انتظرتك طويلاً ولم تعد.

- لكنني أرسلت بد ليحضرك. ألم تكوني عند البوابة حين وجدك؟

- لا.. كنت منذ بدأت أفتش عنك. ولم أعرف أنك أرسلته ليأتي بي.

فتح لها باب السيارة:

- ولماذا، هل لهذا أي فارق؟

- كنت أتمنى لو لم ترسله.. هذا كل شيء.

- يجب أن تعتادي على وجوده ديلين.. فسترينه كثيراً بعد

أن نتزوج.

- هذا إذا لم ينفذ ما يريد؟

- ينفذ ماذا؟ أن لا يرانا أو ليمنع زواجنا؟

- الاثنان معاً.

أوصلتهما السيارة بسرعة.. ما أن أوقفها كليف أمام المنزل حتى قفزت ديلين منها، وسارعت إلى الفناء.. عبر القناطر الموصلة إلى الشرفة شاهدت سوزان تضع طبقاً كبيراً من اللحم على طاولة الطعام.. فنظرت المرأة إليها:

- لقد عدتِ.. كيف كانت المباريات؟ هل تمتعت بها؟

- أجل.. كانت مسلية.. سأصعد لأغتسل وأغير ثيابي ثم أنزل لأساعدك.

- لا داعي للعجلة.. فقد أنهيت كل شيء تقريباً.. ثم ان هذه حفلتك والعروس لا يجب أن تقلق نفسها بشيء.

- شكراً لك.

بينما هي في غرفتها، تغتسل وتغير، سمعت أصوات السيارات تتوافد. والأصوات تتصاعد بالحديث في الشرفة. وبدت الحفلة في أوجها حين وصلت إلى الشرفة.. وكانت مكبرات الصوت تبث الموسيقى إلى الخارج، والجميع يتحدث ويضحك، يحمل كل منهم إما صحن طعام أو كوب عصير مختلف الالوان. على الفور ظهر كليف إلى جانبها، ليمسك

بيدها.

- هل أنت جائعة؟

- ليس كثيرا.

- أتريدين شراباً؟

- أهناك شاي مثلج.

- هاي.. من المفترض أن هذا احتفال، وليس لشرب الشاي.

ووجدت ديلين كوب عصير مثلج بين يديها.. فأحتست منه، فأحست بلذعة الحامض فيه:

- إنه قوي.

- من صنع أمي.. لكن بإمكانك أن لا تشربيه، اتركيه من يدك ولن يلاحظ أحد. هيا، من الأفضل أن ندور بين المدعوين. إنهم مجموعة أصدقاء.. وسنفتتح الرقص.. البعض هنا راقص ماهر.

معلومات كليف ثبت صحتها. فقد كانت المجموعة فعلاً ودودة صديقة. ووجدت سهولة في الحديث والضحك مع الجميع.. بعد أن افتتحت الرقص مع كليف كان أول من يدعوها للرقص جاك مائيون. وحين بدا للجميع أنها شريكة تحب الرقص، انكسر الجليد وأخذت تنتقل من شريك إلى آخر. كلهم يتسابق للرقص مع عروس كليف المستقبلية.

وأصبح من الصعب عليها أن ترفض أحداً خوفاً من جرح مشاعرهم.. ثم انها كانت قد نسيت متى رقصت هكذا آخر مرة، وتمتعت بنفسها.

كانت تقف تأخذ قليلاً من الأنفاس للراحة، حين امتدت يد لترتب كتفها، فاستدارت متوقعة أن ترى بول أمامها.. لكنها ضحكت بارتياح!

- هنري!

- إذا كان اللحن القادم من نوع «السلو» فهل لي شرف مراقصتك؟ وانحنى بشكل رسمي.. ردت بأدب مماثل:

- سأكون جد سعيدة.

لكن يدا اطبقت على خصرها من الخلف.. وقال بول:

- آسف هنري.. لكنني أطالب بحق الأولوية في هذه الرقصة.

وأدارها إلى ذراعيه وهو يتكلم.. فحاولت أن تحتج:

- أوه.. لكن..

قاطعها هنري مطمئناً:

- لا بأس.. سأنتظر دوري.

حاولت أن تجد عذراً آخر، لكنها اكتشفت أن ذراعيه تلفان خصرها بحيث لم يعد هناك مكان ليديها سوى صدره. فقالت متوترة:

- أفضّل أن ارتاح في هذه الرقصة.

- صحيح؟ ولماذا؟

- لأنني متعبة.. رقصت حتى الآن كل الرقصات تقريباً.. وأريد أن التقط انفاسي.

- لكنك كنت مستعدة للرقص مع هنري.. وبما أنك متعبة لن ندور كثيراً، وبإمكانك الاستناد إلي إذا آلمتك قدماك.

- لا.. شكراً لك.

وأحست بسخف احتجاجها، وسخف رفضها معاً.

الطريقة التي كان جسداهما يتحركان فيها بتناغم، ووقع الموسيقى الحالمة، أطلقا في رأسها أكثر من جرس انذار.. ووضعت يديها منبسطة على صدره، محاولة دفع نفسها بهما لتضع المزيد من المسافة بينهما. ومع أنهما بالكاد كانا يتحركان، إلا أنها سرعان ما وجدت نفسها في الجزء الأكثر اختفاء من الشرفة، بعيداً عن المصابيح المعلقة فوق «البوڤيه».. وتوقفت عن الدفع في صدره لأن هذا كان يسبب لها وضعاً أكثر احراجاً. وقال لها وأنفاسه على شعرها:

- بوجود كل هذا اللحم الكريمي اللون اعجب كيف يستطيع أحد أن يقاومك.

حاولت أن تتلوى بين يديه محتجة، لكن هذا زاد من قربه منها وأجابت بغضب:

- ليس الجميع من آكلي لحم البشر مثلك بول.

- لأنهم لا يعرفون ما يفوتهم.

تنهدة ثانية بخجل وارتباك، يعجبها ما كان يفعل ويفعل، ومع ذلك خائفة:

- بول.. توقف عن هذا! قد يرانا أحد. فماذا سيقال عنا؟

ضحك!

- سيقال أنني أمضي وقتي مع خطيبة أخي.. وهذا بالضبط ما أفعله.. لكن استمري في التظاهر بالمقاومة، وسيعتقد الجميع أنك إنما تحاولين تجنب فضيحة محرجة.

- لا تفعل هذا أرجوك.

بحركة سريعة، أدارها خلف عمود القنطرة، حيث لا تستطيع عين فضولية رؤيتهما، واستند إلى الدعامة المبنية، يجذبها إلى ذراعيه ويغطيها بعناق لاهب.. حدث هذا بسرعة فائقة حتى أنها لم تجد وقتاً للحذر، واضطرت إلى رفع يديها من صدره إلى خلف رأسه بينما كان يضغط عليها بشدة.. كان عناق مجنون، متوحش غير متعقل جرفهما معاً، وارتعشت له.. إلى أن شهق صوت سوزان بصدمة:

- بول! ماذا تفعل؟.

خبأت ديلين وجهها الساخن في ظله، تبعده عن نظر

المرأة اللطيفة التي احبتها. اصابعها كانت بطيئة في الانفكاك عن عنقه، وكأنها أصابع طفل تنسحب من مرطبان الحلوى بعد أن ضبط وهو يسرقها. ورد بول بتنفس عميق:

- أخطأت التعبير يا أمي.. ماذا تفعل هي.. لتمنعني؟

أصبح اذلالها مكتملاً.. لم يبق سوى أن يبعدها عنه ويرحل.. وهذا ما فعل. ووقفت ديلين دون دفاع أمام أمه. خجلها أكبر من أن يسمح لها بالكلام.. وحرجها أكبر من أن تستطيع التحرك.. وامتد الصمت الثقيل لعدة لحظات.. ثم تقدمت سوزان إليها، ولفت يدها حول كتفيها، اللذان كانا منذ لحظات دافئتين في أحضان بول.. وقالت:

- تعالي معي عزيزتي.. كلانا بحاجة إلى دقائق كي نستعيد رشدنا.

- شكراً لك.

صوتها مرتجف، كما كانت أعصابها تماماً. ولم تستطع مواجهة تلك المجموعة السعيدة الضاحكة إلى الجانب الآخر من القنطرة. في الداخل جالت عينا سوزان في وجه ديلين الشاحب. وتنهدت:

- أنا واثقة أن هذا ليس من شأني.. لكن لأنني أم لكليهما.. لا يمكن أن لا أكون مهتمة.

- أعرف.. وأنا آسفة.

- أعرف أنك وبول تعرفان بعضكما من قبل. لكن كان لدي انطباع أنك بالرغم من أنه يبدي اهتمامه بك، لم تعودي أنت مهتمة به. لكن من الواضح أن الأمر ليس هكذا..

- أنا.. لا.. الأمر ليس هكذا.

- اتحبين كليف.. أم بول؟

- كلاهما.. لكن بطريقتين مختلفتين. كليف يجعلني أحس بالأمان والحماية.. لكن بول يطير بي إلى حافة الكون.

- وإلى أي مدى تعرفين بول؟

تنفست ديلين عميقاً ثم أطلقت أنفاسها متنهدة:

- إلى مدى بعيد!

صمتت سوزان طويلاً، ثم سألت:

- وما الذي حدث بينكما؟

هزت كتفيها لا تريد الدخول في تفاصيل القصة الطويلة:

- لم تنجح.. لكنه لن يجعلني أبكي مرة أخرى.. لن أدعه.

- وكم من هذا أخبرت كليف؟

- كل شيء. وهو يعرف أنني لا زلت أجد بول مغرياً.. اقترح عليّ أن أكمل هذين الأسبوعين هنا لأتخذ القرار مما إذا كنت سأتزوجه أم لا. وحتى الآن لم أنجح في معاملة بول كأخ لي.

وابتسمت بمرارة.. فقالت سوزان:

- أظن كليف قد اقترح اقتراحاً منطقياً.. فالخطوبة أصلاً تعني فترة تجربة.

رفعت ديلين عينيها، ويداها مفتوحتان بالتوسل.. عيناها الزرقاوان قاتمتان متألمتان بالقلق:

- ماذا أفعل سوزان؟

ضحكت سوزان بدهشة:

- انه سؤال غير منصف.. أرجو أن تقومي بفعل ما ترينه من كل قلبك صحيحاً.

- أجل.. بالطبع.

- اعلم أن هذا ليس بالرد الكافي.. فالأمر صعب جداً عليك. لكنني لا أثق بنفسي أن أكون متجردة بما يكفي لأعطيك نصيحة ملائمة.

ردت بكل صدق وإخلاص.

- كنت متفهمة بما يكفي.. ولن ألومك إذا لم ترغبي بي كزوجة ابن.. فأنا لا أستاهل الانطباع الجيد منك. خاصة بعد تصرفي المهين الليلة.

ذكرتها سوزان بحنان:

- كنت أنا كذلك صغيرة يوماً.

ابتسمت ديلين.

- أجد سهولة في تصديق هذا، لأنك لا زلت صغيرة في أشياء كثيرة.

ضحكت سوزان بدفء:

- الآن أعطيتني الانطباع الجيد عنك.

- لكنني عنيت ما أقول.. ولم أقل هذا لمجرد..

قاطعتها بسرعة:

- اعرف.. وإذا شعرت أنك قادرة، سنعود الآن إلى الحفلة قبل أن يتساءل الضيوف عن سبب غيابنا.

الشكر كله لتفهم سوزان، أصبحت اعصابها بحالة أفضل الآن. مع أنها لم تكن واثقة كم سيصمد دفاعها المحطم بعد.

في نفس الوقت تقريباً، الذي شاهدت ديلين فيه كليف، فصل نفسه عن مجموعة كان يقف معها ليتقدم إليها.

- كنت أفتش عنك. آخر مرة رأيتك فيها كنت ترقصين مع بد.. ثم اختفيت. أين كنت؟ تصلحين زينتك؟

أعطاها كليف العذر اللازم، لكن صدقها لم يسمح لها بأن تتقبله، فقالت:

- كنت وأمك نتبادل الحديث.. بعد أن انقذتني من بول. عضلة من فكه تقلصت فجأة حين شد بفكيه معاً.

- هيا بنا نرقص.

ولم يترك لها مجالاً للرفض.. وضمها بين ذراعيه،

فأحبت بالحماية . فعناقه غير المتطلب كان فردوساً بالنسبة لأحاسيسها المتجيشة، فاسترخت بين ذراعيه، لأنها لا تحتاج للحذر معه، ثم تمتم في أذنها:

- هل أخذ يؤثر عليك؟

- تنهدت بعمق:

- بإمكانه دائماً التأثير عليّ.. وأظنك أخطأت حين جئت بهذه المشردة معك إلى المنزل كليف.

همهم بالانكار فوق شعرها:

- لا.. لم استطع تركك هائمة ضائعة ووحيدة.. كنت بحاجة لمن يرعاكِ..

أهذا ما تحتاجه حقاً؟

في الماضي كانت تؤمن أنها لا تحتاج سوى إلى من يعتني بها ويهتم.. أما الآن فلم تعد واثقة.

طافت عيناها في الشرفة لتستقر على طاولة الشراب.. كان بول يلازم الطاولة.. والكأس في يده.. ونظره مركز عليهما، يراقبهما بعينيه الكهرمانيتين القاسيتين.

* * *

- ٨ -

الانتظار

حوالى منتصف الليل، بدأ الجمع بالتفرق.. ذهب البعض إلى منازلهم، ومع بقاء البعض الآخر إلا أن أصواتهم كان خافتة كالموسيقى تماماً. وتفرقوا مجموعات دونما تنسيق.. وعلمت ديلين أن الحفلة على وشك الانتهاء. وقال لها كليف:

- جاءت أمي ببعض القهوة.. أتريدين القليل؟

نظرت نحو الطاولة لتجد سوزان تضع القهوة، ولأول مرة منذ عادت إلى الشرفة لم يظهر بول هناك.. فأعادت نظرها إلى كليف، حارسها تلك الليلة.

- أجل.. القهوة الآن عظيمة.

وهو يصب لهما فنجانين، تقدم هنري وايلينا منهما ليقول هنري:

www.elromancia.com

- سنغادر الآن.. ورغبتنا في أن نودعكما.

ابتسمت ديلين:

- كم أنا سعيدة لقدومكما.

قالت ايلينا:

- تمتعنا جداً بالسهرة.

وقالت ديلين:

- لكننا لم نرقص معاً هنري أليس كذلك؟

رد عليها:

- لم يبدو عليك المزاج للرقص، ربما فيما بعد.. ديلين امرأة جميلة يا كليف، ويجب أن تفخر بها.

- وأنا فخور بها.. واكتشفت منذ زمن كم هي جميلة.

بهدوء الوحش المقتنص، ظهر بول إلى جانب ديلين:

- أنت مخطيء يا أخي الأصغر.

والتفت يده على خصرها ليشدها إليه:

- أنا اكتشفتها قبلك.. وهذا يعني أنها ملكي...

فكان التصاق جسده بجسدها أحرقها.. حرارته التي لا تطاق جعلتها ضعيفة مهزوزة، لكن وعيها بالعيون الفضولية من حولها، أعطتها القوة لتقاوم، فضربته بقوة في معدته وقالت كأنها تحتج:

- ستسبب فضيحة يا بول.

- ولماذا؟ أتظني أن أحداً لم يلاحظ أنني لم أستطع انتزاع نظري عنك طوال السهرة؟ أو الطريقة التي بقيت فيها تفتشين عني؟ أنت لي.. بغض النظر عما يفترض أن يمثله هذا الخاتم في يدك.

- أنت مجنون!

- صحيح؟

مد يده الأخرى تحت ذقنها ليضع باهمه في فجوة العنق ليجبرها أن ترفع رأسها إليه.. ضغط يده بالكاد كان يسيطر عليه، ولو زاده ذرة قوة بعد، لحطم عنقها:

- المجنون عادة لا إحساس له.. لماذا إذن أنا مسحور بعطر شعرك، طعم انفاسك، شعوري بجسدك؟

لم تستطع ديلين الرد، لعدم قدرتها على الابتلاع أو الكلام. اليد خلف خصرها بدأت تتحرك إلى الأسفل.. وأكمل:

- لو كنت فاقداً لكل اتزان أو مشاعر، لبقيت راغباً في أن أحملك بعيداً و...

تقدم كليف ليضع يده على ساعد اليد التي تضغط على خناق ديلين:

- بد..

بحركة سريعة، ترك عنقها، وحاول ضرب يد كليف.

لكن يده صدمت فك كليف لتسبب شهقة دهشة مكبوتة، وألماً شديداً.. ومسح كليف ذقنه، تقطيبة مصدومة تغضن جبينه.

- كليف.. أنا...

سارع كليف لإيقافه عن الاعتذار:

- لا بأس، كان هذا حادثاً غير مقصود.

بشفتين مبيضتين، حدق به بول لحظات قبل أن يستدير ويترك الشرفة بخطوات طويلة سريعة.. وكانت يد ديلين على عنقها حيث كانت يده، تحس بالألم الذي سببه انغراز اصبعه في حلقها، محاولة تدليك الألم الذي تركه، وراقبت بول يدخل المنزل، ويصفق الباب الزجاجي حتى كاد يكسره.. وتحرك كليف إلى جانبها.

- هل أنت بخير؟

حركة إلى جانبهما ذكرتها بوجود هنري وإيلينا، فاستدارت معتذرة.

- أنا آسفة لما حدث.. أنا..

ابتسم هنري بلطف:

- كان هذا متوقعاً.. ومن المؤسف أن يقع أخوان في حب امرأة واحدة.

في قرارة نفسها تساءلت ديلين.. حب؟ لكنها لم تقل

شيئاً. وقالت ايلينا:

- لا تشعري بالحزن.. فالكل سيأسف لحصول هذا، حتى بول.. ومن الأفضل النسيان.

وافق هنري على كلامها:

- أجل.. وهذه المرة سنودعكما.

فغادره أكبر الأزواج سناً، كان إشارة لمن تبقى من الضيوف.. وحين أصبحت ديلين وحيدة مع كليف، لف ذراعه حولها وقال:

- نحن لم نتناول قهوتنا.. فهلّ ترغبين في فنجان الآن؟

- شكراً لك، لكنني أفضّل الذهاب إلى غرفتي.. فأنا..

- لست مضطرة للشرح.. أنت تفضلين الاختلاء بنفسك.. افهم هذا.

تنهدت ديلين:

- هذه حفلة خطوبتك، وخطيبتك مضطرة للاختباء لحظة مغادرة الضيوف.. ربما يجب أن تلغي كل هذا كليف.. لا يمكن أن تكون راغباً أن يتم الأمر بهذه الطريقة.

- صحيح.. لكن لدى الكثير من الصبر.. تصبحين على خير.

ودفعها بعطف نحو الأبواب الزجاجية:

- ألن تأتي معي؟

www.elromancia.com

هز رأسه:

- ليس في الحال.

دخلت المنزل لتمر أمام باب غرفة جلوس العائلة غير الرسمية. . عادة باب هذه الغرفة يبقى موصداً، لكنها وجدته الآن مفتوحاً وبول مستلقٍ إلى الوراء في مقعد خشبي بذراعين، وساقاه ممدودتان أمامه. . شعره مشعث وكأنه فعل هذا بأصابعه.

وهو يستدير في مقعده شاهدت بسمة بشعة على وجهه. . وسرعان ما اصبحت ديلين هدفاً لنظراته. . وتجمرت تقاسيم وجهه حتى حاكت الصخر المنحوت، مصقولة، لا مشاعر فيها، ما عدا شعلتان داخل عينيه العسليتين. وقف عن المقعد وتقدم من الباب، فتراجعت، فالتوى فمه بابتسامة سخرية ومد يده. . ليصفق الباب في وجهها.

كان الوقت قد تجاوز منتصف النهار حين نزلت ديلين. بضع ساعات من النوم، لم تكن كافية لاحساسها بالراحة. وهي تتجه نحو الممر المقنطر، سمعت صوت بول يتصاعد بغضب:

- أنا أكبر سناً من أن يضربني أحد على يدي. . لا تتدخلي في هذا يا أمي!

تمتمت سوزان برد لم تسمعه ديلين. لكن رده كان

واضحاً.

- لا احتاجك لتقولي لي ما هو صحيح وملائم. . ولأجل الله. . توقفي عن الصراخ.

توقفت ديلين مكانها مترددة، حين سمعت باب غرفة الطعام الموصل إلى المطبخ ينفتح وينغلق عرفت أن بول خرج، فتقدمت. على الأقل ستتمكن الآن من تناول فنجان قهوة مع سوزان.

حين وصلت، شاهدت بول جالساً على الطاولة، وليس سوزان. مرفقه يستند إلى الطاولة، جبينه في راحة يده. كان لا يزال في نفس ملابسه، مما يشير إلى أنه نام بها. وعلى الأرجح في الغرفة الصغيرة. والتفت لتصفع نظرته ديلين.

- لا تقفي هكذا في الباب. . ادخلي وتناولي فطارك. . هذا ما كنت تنوين أن تفعلي. . أليس كذلك؟

- كنت أظن سوزان هنا.

وتقدمت حيث ابريق القهوة.

- إنها في المطبخ. . وعليك القبول بصحبتي.

أصدرت قائمة الكرسي صريراً فوق الأرض وهي تجرّها لتجلس:

- كوني حذرة وصامتة أكثر. . أرجوك!

- ألديك صداع؟

تنهد:

- هذا وصف ملطف.

- وماذا تشرب؟

- وصفة من وصفات السيدة كارلستون، ولا أريد أن اعرف ما بها.. فهي تكاد تشفيني، وهذا هو المهم.

وهي تجلس قبالته، لم تجده خطراً كما كان ليلة أمس، فسألته:

- هل نهضت من النوم لتوك.

- منذ دقائق.

- كم أنت حساس هذا الصباح! ألم يساعدك النوم على النسيان؟

السخرية جلبت نظرة حادة منه.

- لا شيء يساعدني على نسيان أنني ضربت أخي.. مع أن كليف سامحني على هذا.

- كان حادثاً.. فأنت لم تكن تنوي ضربه.

- لا.. وهذا صحيح. لكن لو أن الأمر كان معكوساً لضربته كما فعل.. لكن كليف لا يفعل هذا.

- الحزن لا يحل المشكلة بول.

- صحيح.. بل يزيدها حدة.

- إذن كف عن هذا.

- مزيد من المحاضرات، لا بد أن هذا يوم مخصص للمحاضرات.. أولاً أمي.. والآن أنت.

- أنا واثقة أن سوزان كانت تبدي لك قلقها عليك.

- اوه.. لكنها لم تكن تحاضر لي عن هذا. بل كانت تتهمني باستغلال علاقة سابقة معك.

حاولت إخفاء اضطرابها المفاجيء بشرب القهوة.. ثم اجبرت نفسها على الرد بهدوء:

- وهذا صحيح.

- لست مضطرة على الموافقة.. لكن طريقة تجاوبك قالت لي أنك موافقة.

كان صعباً عليها إنكار مقولته، خاصة بعد أن تسببت نبرات صوته بإثارتها.. لكنها لم تستطع إلا أن تتحداه:

- قد يوافق المرء على أمر غير صالح له.. تركك تغازلني أصبح عادة لديّ. وعادة سيئة.. وكأنني أشعل سيكارة لا أريدها. أنت بالنسبة لي كعادة التدخين السيئة... يعرف المدخن أن التدخين سيىء للصحة مع ذلك لا يتوقف عن الرغبة في سيكارة. لكنني بدأت أتخلص من هذه العادة بول. وقد أعاني من العوارض، لكنني في النهاية سأتغلب عليها.

نظر إليها مقبّحاً:

- وهل ستتمكني؟ أنا نوع من الادمان لا شفاء لك منه..

لقد تعلقت بك يا حلوتي..

بدا كلامه مقنعاً.. لكن ديلين تملك الدليل على بطلان حجته.

- ستة أشهر يا بول، بقيت من دوني.. ولست أرى أنك تعاني من ردة فعل، وبإمكانك الاستمرار بدوني بشكل جيد.

- وما الذي يجعلك تعتقدين هذا؟

- الأمر واضح..

لن يتمكن من اقناعها أنها تعني له ما يحاول أن يدعي.

- حين تودعنا.. كان وداعاً نهائياً.. وتمكنت من تجاوز محنتي بشكل رائع.. وكذلك أنت.. فلنبق الأمر كما هو.

ودفعت كرسيها عن الطاولة لتقف:

- لو عذرتني سأذهب إلى المطبخ لأقنع السيدة كارلستون بتحضير الفطار لي.

- لن تتزوجي كليف.

وقفت بباب المطبخ:

- هذا قراري أنا.. وليس قرارك.

- اذن سأفعل ما أستطيع فعله من أشياء لعينة لأتأكد من أن تأخذي القرار المناسب.

خلال الأيام التالية.. لم يحاول بول تنفيذ تهديده. بل كان يحاول جهده الابتعاد عنها، وتساءلت ما إذا كان يقوم بحرب

نفسية ضدها، ليجعلها تقلق مفكرة بما ستكون حركته التالية.

يوم الأحد، جاء بزيارة ثانية إلى كنيسة البلدة.. وهذه المرة جاء بول مع العائلة، ووجدت ديلين نفسها بينه وبين كليف وسوزان إلى الجانب الآخر منه، وإلى الوقت الذي انتهى فيه القداس كانت قد أصبحت كتلة من عضلات وأعصاب متوترة.. عند الخروج، سار بول مع أمه، وأحست ديلين أنها أعطيت مجالاً للتنفس بابتعاده عنها.

في الطريق إلى السيارة سألت سوزان:

- هل ستكون هنا في عيد الفصح يا كليف؟

- أخشى أن لا أستطيع، فأنا مرتبط بأعمال هامة قبله مباشرة وبعده مباشرة.

- ربما لأجل ديلين تتمكن من المجيء لنهاية الأسبوع فقط.

- فكرة عظيمة.. لكنني لن أستطيع.

وفتح باب السيارة الخلفي ليساعد ديلين على الصعود بينما يساعد بول أمه للصعود إلى المقعد الأمامي.. ثم صعد إلى المقود.

- في الحديث عن الأعياد أتمنى أن تكون السيدة كارلستون قد حضرت لنا غداءاً مناسباً.

رد عليه بول ببرود:

ـ وهذا فارق آخر بيني وبينك كليف.. لو كنت أجلس مكانك مع ديلين لفكرت بالأكل.. لكن ليس الطعام..

احمر وجه ديلين، وصاحت أمه بصوت مخنوق تزجره:

ـ بول!

ـ حاضر أمي.. سأخرس وأكون ولداً طيباً.

وابتسم ساخراً.

أشاحت ديلين بوجهها لتحدق خارج نافذة السيارة.. لا جدوى.. ليس لديها أي دفاع ضد كلماته، عدا نظرة منه أو لمسة. صحيح أنها كسبت بضع مناوشات بسيطة لكنها خسرت معركة قلبها. وأطبقت يد كليف على يدها مطمئناً، فأركنت أفكارها إلى زاوية النسيان، لا تريد أن تتخذ القرار المطلوب منها.

ـ ما رأيك بالسباحة بعد الظهر؟

ـ حسناً.

ـ وماذا عنك بد؟

ـ لا توجه الدعوة لي كليف، وإلا فقد آخذ أكثر مما تخطط أنت له.. سأتغيب عن المنزل بعد الظهر.. أترى.. أنا أثق بك مع ديلين.. لكنك ستكون غبياً مغفلاً لو وثقت بي معها.

وهذا تحذير كليف.. ويجب أن تقرر ما يجب أن تفعل.

حافظ بول على وعده، ترك المنزل طوال بعد الظهر،

وأمضى الأمسية في ملجأه المعتاد، غرفة الجلوس الصغيرة... وغاب عن المنزل يوم الاثنين كذلك. وعرفت ديلين أنه قد بدأ بجمع الماشية الشاردة.

في المساء اجتمع الجميع على الشرفة ما عدا بول. وأقبلت سوزان نحو الأبواب الزجاجية تقول:

ـ كليف.. مخابرة هاتفية بعيدة.. إنه شريكك.. برزت بعض الأمور الملحة.

ـ سآخذ المكالمة في الغرفة الصغيرة.

لوحدها أخذت ديلين كوب العصير واتجهت إلى طرف الشرفة. كانت أخر أشعة للشمس تلمع فوق سطح بركة السباحة، في وقت كانت أشجار النخيل المروحي حولها تتهادى في النسيم العليل.. واتجه نظرها نحو المرجة التي تحوي أشجار السنديان، على بُعد كانت الاسطبلات البيضاء الجدران، وكأنما كانت دون وعي تفتش عن بول.

أقبل من بين الأشجار بخطوات متعالية-واسعة.. وبما أن أحاسيسها كانت متوترة، فقد أحست بتعبه. حين اقترب شاهدت التعب على وجهه.. خطوط عميقة حول عينيه وفمه. العرق جعل الجينز والقميص القطني تلتصق بعضلاته، والقماش مليء بالغبار.

لم يتغير تعبير وجهه حين رآها، ولم يغير من اتجاهه

نحوها... كانت عيناها الزرقاء جائعة لرؤيته، ولم تستطع أن تنتزعهما عنه... قالت وكأنها تحييه:

- كنا على وشك اليأس من مجيئك للعشاء.

آخر شيء كانت تتوقعه كرد منه، أن يمد يديه ويجذبها نحوه معانقاً، طابعاً قبلة على رأسها... طوعاً... اشتد جسدها تقرباً منه. فاجتاحتها حرارة جهده، وغلبت عليها رائحة الأرض فيه، زادتها حدة رائحة عرقه مختلطة برائحة الخيول والجلد.

همس لها وفمه على شعرها:

- لن تعرفي كم مرة تصورتك تنتظرينني بعد نهار عمل طويل وشاق. وكوب العصير في يدك.. ما هذا؟ غريب فروت مع تونيك؟

قبل أن ترد، أخذ منها الكأس وشرب منه.. على الفور نسيت كل شيء سوى حركة حلقه وهو يبتلع الشراب، والأثر الذي تركه على شفتيه حين انتهى.

الإثارة الفجة التي أثارتها نظرته إليها، جعلتها تفتش عن انفاس كادت تفقدها. وسرعان ما سحبت نفسها من عناقه مع أنها بقيت متوترة وهي تذكر ما قاله عن انتظارها له. وقالت:

- لا تحاول خداعي بأكاذيبك بول.

- أكاذيبي؟

- أجل.. أكاذيبك. حول انتظاري لك مع شراب بارد.

- وما الذي دفعك إلى اعتبار هذا كذباً؟ لقد طلبت منك بالفعل أن تأتي معي إلى هنا.. أم نسيتي؟

- لم أنسَ.. رفضت المجيء.. ولم أندم على القرار.

فتح باب الشرفة وخرج كليف، وقال معتذراً لها:

- اعتقد أنني لا أستطيع توقع اسبوعين كاملين من الراحة دون عمل..

- وهل الأمر خطير؟

كانت تود الانضمام إليه لولا يد بول تحمل الكأس وتسد طريقها.

- تركت السكرتيرة العمل، والأعمال المكتبية متراكمة.. هذه ليست المرة الأولى التي تفعلها كلودين.. فهي تكررها كل شهرين مرة.

التفت إلى بول وأكمل.

- كنا على وشك تناول الطعام دونك.

- وهذا ما قالته لي ديلين. أهذا كأس شرابك؟

- أجل.. أكان يومك متعباً؟

- أجل.. الا زلت تريد أن تأتي مع ديلين للتفرج على جمع القطيع في الغد؟

- طبعاً. وأنت ديلين؟

ـ أجل.

قال بول:

ـ سنغادر عند الثامنة صباحاً إذن. أتستطيعي الاستيقاظ باكراً؟

ـ أستطيع.

خرجت سوزان إلى الشرفة:

ـ بول.. لقد عدت! طلبت من السيدة كارلستون تأخير العشاء نصف ساعة، لتوي.

ـ جيد، هذا يعطيني الوقت للحلاقة والاغتسال وتغيير ثيابي. لو عذرتموني جميعاً.

ضحكت سوزان:

ـ بكل سعادة.. فرائحتك كرائحة مصنع حلويات!

التفت بول إلى كليف وديلين:

ـ احذركما.. هذا ما سيكون الحال عليه غداً.

رد كليف:

ـ اعتقد أننا ستحمل.

وسألت سوزان:

ـ هذا صحيح.. لقد نسيت، ستذهبان غداً لمشاهدة عملية جمع الشوارد أليس كذلك؟ بول محق.. إنها عملية تأتي بالحرارة والرائحة. لكنني اعتقد أنكما ستجدان العملية مثيرة.

وهي تتكلم كان بول قد دخل المنزل.. ولم تعتقد ديلين أن من الحكمة أن تراه في الغد في محيطه الملائم له.. فقد يكون هذا غذاء لذكريات الغد.. لكن الوقت فات للتراجع.

لقد التزمت بالذهاب، ولا تريد أن تضطر للشرح لكليف سبب فتورها للفكرة.

* * *

www.elromancia.com

- ٩ -

المقارنة الصعبة

بعد الثامنة ببضع دقائق، خرجت ديلين من المنزل برفقة كليف.. والتفتت حول الفناء متوقعة رؤية بول ينتظر مع الجياد. بدلاً من هذا شاهدت مقطورة الجياد وفيها ثلاثة جياد مسرجة. فسألت كليف:

- ألن نركب الجياد هنا.

- لا.. فالمكان بعيد جداً. السيارة أسرع وأسهل..

- أظن أنني نسيت كم هي المزرعة كبيرة.

حين وصلا الشاحنة لم يزعج بول نفسه بالنزول. كانت ذراعه على النافذة والأخرى على المقود.. فسألها ساخراً:

- صاحية؟

- صاحية جداً؟

إذا لم تكن صاحية قبل هذا، فتوقعها أن تجلس بين الرجلين صحّاها.. فتح بول لها الباب، فقالت:

- أتمانع لو جلست إلى النافذة؟

رد بول قبل أن يرد كليف:

- ألن تشعري بالأمان وأنت إلى جانبي؟

- أليس من الأمان لي أن أجلس من الخارج؟ أم أن قيادتك متهورة، وقد ينفتح الباب وترميني إلى الخارج؟

ضحك كليف:

- لقد نالت منك بد!

- لا يهمني أين يجلس أي منكما، لكن قررا بسرعة.. فلن نبقى هنا طوال اليوم.

وأدار المحرك..

قال كليف:

- اجلسي قرب النافذة واستفيدي من الهواء المنعش..

ودخل السيارة قبلها:

- شكراً لك.

بعد مسافة بعيدة عن المنزل، استدار بول نحو طريق فرعي ترابي، واحد من طرقات عديدة تقطع المزرعة إلى عدة أقسام. وللضرورة قاد السيارة الشاحنة باعتدال بسبب الجياد في المقطورة.. الهواء الوحيد هناك كان ذلك الذي تتسبب به

سرعة السيارة عبر الجو الخانق الرطب.. صوت المحرك ونفخ الريح في النوافذ، أبقى الحديث مختصراً، حتى أن ديلين لم تشارك به. بعد اربعين دقيقة وصلوا إلى مكان تتجمع فيه السيارات والشاحنات والمقطورات.. حيث توقف بول، وبالرغم من كثرة العربات، لم يكن هناك أحد في المكان، ونزلت ديلين يلحق بها كليف.. خلف السياج الشائك والبوابة كان هناك حقل واسع من العشب المرتفع.. لكن دون أثر لجواد أو فارس أو بقرة. تقدمت ديلين إلى الخلف حيث كان بول يفتح باب المقطورة.

- أين الجميع؟

- هناك..! إنهم هنا منذ الفجر، وسنلحق بهم.

بعد تفحصها للرباطات، امتطت ديلين جوادها، واستولى كليف بدوره على سرج جواده. وكان بول آخر من ركب بعد اقفال باب المقطورة. وتقدم الرمادي القوي نحو السياج ورفع رأسه متشوقاً، ففتح بول البوابة ودفعها لتنفتح، فدفع كليف وديلين جواديهما عبرها وانتظرا إلى أن عبر بول وأقفلها.

وبانفتاح البراري أمامهم، لم تحتج الجياد إلى تشجيع كثير لتنطلق خبباً.. وسرعان ما اختفت المركبات ورائهم لتبدو قطعاً صغيرة في الأفق. وبدا لديلين أنهم يسدلون الستارة عن الحاضر، وينطلقون إلى الماضي يوم كان حفيف الجلد ووقع

الحوافر تسيطر على الدنيا.

انطوت الأرض تحتهم ثم امتدت، تتموج أمام انظارهم وكأنها بحر أخضر من العشب المتموج.. هنا وهناك انتشرت الأشجار تناطح السماء الزرقاء بسوقها الخشبية الضخمة. وسمعت ديلين صوتاً مميزاً من بعيد.. صوت السوط.. فابتسمت لأحساسها أنهم عن قريب سينضمون إلى بقية رعاة البقر... وهذا توقع ما كان لها أن تتصوره لولا ما سبق من حديث بول عن سوق الثيران بالسياط.. حين اتجه بول ناحية الصوت، علمت أنها على حق في توقعاتها.

فجأة شاهدتهم.. بداية، جلود الحيوانات اللماعة القاتمة لمجموعة من الماشية يلحق بها ثلاثة فرسان. كان هناك حوالى الثلاثين بقره يلحق بها عدد مماثل من العجول الصغيرة. باقترابهم أكثر لاحظت الكلاب الرمادية تركض لاهثة حول القطيع، يركض أحدها بين حين وآخر لينبح على بقرة أو عجل يحاول الخروج عن القطيع.. وتصورت نفسها في أحد أفلام الغرب الأميركي.. أحد الفرسان فصل نفسه عن القطيع وأدار جواده نحوهم وأوقف بول الرمادي:

- مرحباً كايد.. كيف تجري الأمور؟

هز الرجل الضخم كتفيه:

- تعرف كيف.. مع البعض لعبة إختباء.. مرحباً كليف.

وانحنى ليصافحه:

- آسف لأنني لم أحضر حفلتك.

- لا بأس، جيد أن أراك كايد.. هذه خطيبتي ديلين ايفرلاي.. وهذا كايد دلتون وكيل عمال بول.

- سعيد لمقابلتك آنسة ايفرلاي.

ولامس قبعته دليل احترام، فهزت رأسها:

- وأنا كذلك.

- قال بول أن هذه المرة الأولى التي تشاهدين فيها جميع الشوارد.

- اجل هذا صحيح.

- ستجدين معظم الإثارة منتهية هنا قرب الأشجار وستنقل هذه المجموعة إلى حظيرة الدفع.

رفع بول يده بتحية:

- سنراكم هناك إذن.

كان الفرسان يتحركون قريباً من السياج، يدفعون الحيوانات نحو الحقل. معظم الأبقار وعجولها كانت تتحرك في الاتجاه الذي يقودها إليها الرعاة.. ودهشت ديلين لسرعة ورشاقة الحيوانات الهادئة.

كانت الأشجار ترمي بظلها فوق العشب، وبالسير تحتها أحست بالجو الخانق الذي تسببت به الشمس، ففي هذه

المناطق البعيدة عن البحر لا وجود للريح الباردة في مثل هذا الوقت من السنة، سوى في الليل حيث تهب رياح الجبال.

ولاحظ بول ضيقها وتعرّقها، فقال:

- انه عمل شاق.. والطقس حار.

- لست أتذمر.

علق كليف:

- لو أن الحرارة ارتفعت قليلاً بعد، لتمكنا من سلق البيض. بإشارة من يد بول أن يلحقا به انطلق الكستنائي تحتها وبدأ الهواء يتلاعب بشعرها. وقال لها بول:

- أعط حصانك حريته حين تشاهدين بقرة.. وسيعرف ما يفعل.

سرعان ما ظهرت أمامها بقرة كبيرة سوداء، بدت أولاً خاضعة لتلويح بول.. وما أن وصلت إلى العراء، مارة أمام ديلين، حتى استدارت لتناور طريقها وتعود إلى الأشجار.. وقفز «برايت» الكستنائي ليلاحقها دون أمر من ديلين، التي تمسكت بقربوس جوادها، وشدت ساقيها إلى جنبيه.

سد الجواد المدرب الطريق أمام البقرة، فغيرت الاتجاه وعادت تركض إلى الحقل المفتوح، وركض الجواد خلفها، وسمعت ديلين ضجيج الحوافر ورائها، فالتفتت بسرعة لترى أن بول يلاحق البقرة أيضاً.

في العراء، أخذت البقرة تستدير في دائرة واسعة لتعود إلى الأشجار. ونفخ الريح في بلوزة ديلين ليرجعها إلى الوراء، لكنها لم ترفع نظرها عن الطريدة. حين نجحت في إبعاد البقرة عن الأشجار، أحست بشعورٍ جامح من النجاح.. واستمر بول بالسير إلى جانب البقرة لتبقى متجهة في الاتجاه الصحيح.. إلى أن انضمت إلى القطيع الصغير بحراسة الكلاب.

أبطأ الكستنائي سيره، فانحنت ديلين تربت عنقه المبلل بالعرق. السرعة المجنونة تركتها مقطوعة النفس ومتوهجة.. وأخذت تضحك للإثارة التي مرت بها. وصاحت:

- رائع..

لمعان ابتسامة بول البيضاء كانت دافقة:

- ستصبحين راعية بقر ماهرة لو بقيت هنا مدة أطول.

لكنها لم تدرِ أكان يشاركها حماسها أم يسخر منها.

- لكنني لن أبقى طويلاً.. كليف وأنا سنسافر في نهاية الأسبوع.

امتدت يده لتمسك لجامها وتوقف ركوبها:

- لن تعترفي.. اليس كذلك..؟ لا زلت لا ترين أن كليف ليس لك.

- لا.. لا أرى هذا. لكن حتى ولو لم يكن.. أنا واثقة

من أمر واحد.. ولا أنت لي!

ضربت قدميها في جوانب الجواد ليقفز متحرراً من قبضة بول على لجامه.. وما ان انطلق، حتى أبطأت من سيره كي لا تسير بمجازاة الرمادي المنطلق سريعاً. وعادت نحو الأشجار تفتش عن كليف، حين انضم إليها بول، لم تحاول تغيير طريقها.. حين وجدت كليف وسار إلى جانبها قال ممازحاً:

- ألا زلت سالمة بعد تلك المطاردة التي يقف لها شعر الرأس؟

- وأين كنت؟ ظننتك ستنضم إلي.

ضحك:

- أو تمزحين؟ أنت قادرة على الانطلاق بتلك السرعة التي قد تقطم الرقاب، أما أنا فأعرف حدي.

- كانت تجربة رائعة.

رد كليف دون اعتذار مبتسماً:

- لكنها ليس النوع من المرح الذي يعجبني.

بعد تمشيط كل ما يحيط بهم من أشجار، قادوا معاً مجموعة صغيرة من الأبقار والعجول، ليوصلوها إلى زرائب الدفع... ووصلوا إلى هناك وقت استراحة الظهر. وقدم لهم السندويشات، مع وجبة ساخنة، وغالونات من القهوة.. ونصحها بول:

ـ اشربي الكثير من الماء لتعوضي العرق الذي فقدتيه تحت الشمس. فمع أن القهوة من السوائل، إلا أنها ليست فعّالة كالماء.

اختار كليف مكاناً ظليلاً يتلاعب فيه الهواء ليتناولا الطعام فيه، ولم ينضم بول إليهما، وتناول طعامه مع رجاله، حين أنهى كليف الطعام إتكاء إلى جذع شجرة متنهداً باكتفاء.. ونزعت ديلين قبعتها لتمرر أصابعها في شعرها تاركة الهواء يصل إلى جلدة الرأس.

لم تستطع ديلين وهي تجلس هناك إلا أن تقارن بين الأخوين. بول يفضل التحدي في إدارة هذه الأملاك الواسعة.. والتعاطي مع تقلبات الطبيعة وأهوائها.. بينما مركز كليف كمحام مرموق، ولو أنه يماثل مركز بول بالقوة، إلا أنه ليس مضطراً لمقاومة الأوبئة، والجفاف وقساوة الأرض. لذلك فمحاولة مقارنة الأخوين أمر مستحيل والتفاحة لا يمكن مقارنتها مع البرتقالة ولو أن كلاهما من الفاكهة. وفي نهاية المطاف، يعود كل شيء إلى التفصيلات الشخصية..

تنهدت ديلين، وشربت المزيد من الماء.. من الأفضل أن لا يكون هناك تشابه بين الاثنين.. فهي لا تريد أن تنظر إلى كليف لتتخيل بول.

صوت حفحفة جلد السروج كان ايذاناً بانطلاق الرجال من جديد. ورفعت ديلين نظرها لتشاهد بول يتقدم نحوهما:

ـ أترغبين في إلقاء نظرة على العملية عند هذه المرحلة، أي بعد تجميع الماشية؟

ـ أجل.. أرغب في هذا.

توقعت من كليف أن يتحرك معها، لكنه تمدد بارتياح أكثر في وضعيته المستندة إلى الشجرة. وابتسم لها:

ـ هيا اذهبا.. فقد يبدأ النسيم يتوافد نحوي.

فقال بول:

ـ جاهزة؟

ترددت ديلين قليلاً لكنها لم تستطع الرفض:

ـ طبعاً.

حملت قبعتها وانطلقت خلف بول، الذي حاول مساواة خطواته بخطواتها وهما يقطعان المسافة المعشوشبة نحو الحظيرة الحديدية. كانت الحركة قد بدأت في الداخل، وتفرقت الأبقار لدخول راعٍ على جواده بينها، وتوقفت ديلين عند السياج الحديدي. وقال بول:

ـ حين تدخل الأبقار الحظيرة، نفصل بينها وبين العجول. لكن هذا أمر لم يكن ليسعد البقرة أو العجل.. والجواد مع فارسه لم يكن يعطيهم الخيار، وتذكرت ديلين المباريات

التي جرت لربط العجول بالحبال، والتي توضع الآن موضع التنفيذ الفعلي.. صيحات. العجول المرتبكة كانت تُجاب بصيحات أمهاتها العميقة الخشنة. وتابع بول شرحه:

- ما ان تصيح العجول في الداخل حتى تمر داخل الممر الحديدي إلى تلك القلاّبات المنفصلة، حيث تنقلب بالعجل إلى جانبه ويتلقى عندها الدمغة.. ثم التلقيح ضد الأمراض المعروفة للماشية.. كل العجول والثيران ملقحة ومدموغة.

حديدة «الكيّ» كانت تماثل تلك التي شاهدتها في الأفلام الأميركية عن الغرب، رأس الحديدة الأحمر المتجمّر كان يحمل حرف «م» دلالة على اسم المزرعة.. وسمعت الحديد الأحمر يهمس وهو يندفع إلى جلد الحيوانات، وامتلاء الجو برائحة الجلد المحترق. والتفت بول إليها:

- هذه هي الوسائل الحديثة.. إنه التقدم.. وهذا أمر لا يتم بيننا.

اجفلت ديلين للملاحظة الشخصية غير المتوقعة، فقالت بحدة تدافع عن نفسها:

- نحن لا نتقدم لأنني مخطوبة لكليف.

- لكنك لا تحبيه.. لا يمكن أن تحبيه وتتجاوبي معي كما تفعلين. وأنت تتجاوبين بالفعل ديلين. اعرف تماماً كيف يخفق قلبك بين ذراعي.. كما يفعل الآن تماماً. ولقد سمعت

الآهات الصغيرة كمواء القطة التي تصدر منك، حتى ولم تدرِ أنك تصدرينها.. ومن غير المجدي أن تنكري.

وكيف لها أن تنكر؟

- أنا لا أنكر. كانت علاقتنا دائماً جيدة.. وأنت سيّد حق يثير امرأة، ولا تدعي أنني الأول في حياتك.

ردها قلّص من صبره، وقال لها بحدة:

- لم المح مرة أنك الأول في حياتي.

إذن فهي واحدة من كثيرات.. وهذا ما يؤلمها.. لكنها لن تكون تحت تصرفه في كل مرة يفرقع بها بأصابعه، وقالت له:

- حين افترقنا.. اقترحت أن نبقى صديقين. في ذلك الوقت رفضت، إذ لم يكن في نيتي أن نلتقي مجدداً. لكن بما أنني سأتزوج من أخيك قد يكون هذا أفضل حلّ لنا.. وهي فكرتك أصلاً.. وعليك أن تفكر بها مجدداً.

استدارت على عقبيها وتركته مبتعدة. لكنها لم تبتعد أكثر من خطوات حين سمعت شيئاً يقطع الهواء قرب أذنها بحدة، ويلتف على خصرها.. مضت عدة لحظات قبل أن تدرك أن هذا سوطه... التف حولها دون أن يمسها بأذى. وجرّها بول إليه، وهو يتقدم لملاقاتها. وشاهدت الغضب يشتعل في عينيه، لكنها هي كذلك كانت غاضبة.. وقالت له من بين

اسنانها:

- أنت تتمتع بافتعال الفضائح.. اليس كذلك؟

هددها بصوت متوحش منخفض:

- لا تديري ظهرك لي مرة ثانية ديلين.. لا تنصرفي عني مطلقاً!

- وإلا.. فماذا ستفعل بول؟

حذرها بخشونة:

- لا تدفعيني كثيراً يا امرأة!

وأرخى قبضته على السوط ليهبط عن خطرها إلى الأرض. فاستدارت ثانية عنه، لكنه هذه المرة لم يمنعها.. ووصلت إلى حيث يجلس كليف تحت الشجرة، كان قد أغفى قليلاً لكنه استيقظ لحظة رمت نفسها إلى الأرض بجانبه.. وبدأت ديلين تفكر بأن كليف هو كالقرود الثلاثة: لا يرى، ولا يسمع ولا يفعل شيئاً.

ولاحظ كليف شحوب وجهها.

- رائحة الحريق أثر فيك.. أليس كذلك؟ الآن عرفت لماذا لم أذهب معكما.

تمتمت:

- أجل.. فلنركب الجياد ونتنعم ببعض الهواء النقي.

وكان الوقت متأخراً بعد الظهر حين وجدهما بول واقترح

أن يعيدا الجياد إلى المقطورة، ليعودوا إلى المنزل.. وبقيت ديلين تتجنب النظر إليه.. ولسبب ما، أحست أنها ضعيفة معرضة للأخطار مرة أخرى، جلست قرب النافذة في السيارة تستخدم كليف كحاجز بينها وبين بول... وامتنعت عن المشاركة في الحديث.

* * *

www.elromancia.com

- ١٠ -

العصفور السجين!

استلقت ديلين في فراشها غير قادرة على النوم.. بعد تعب الركوب في اليوم السابق، والليلة القلقة التي امضتها قبله، كانت تتوقع أن تنهار في نوم عميق الليلة. لكنها بدلاً عن ذلك بقيت أفكارها تتلوى وتدور في رأسها، تلاحق النوم فتطرده.

كانت الساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل، وحين أقلعت عن محاولة النوم، ورمت غطاء الفراش عنها ونهضت من السرير. الهواء ساخن كسول، فلم تضع الروب عليها.. فتحت أبواب شرفتها الخاصة وخرجت متنهدة ومتقدمة إلى السياج الحديدي.

لمعت نجوم الليل في سماء مخملية معتمة.. وهب نسيم

خفيف يتهامس مع الأشجار وما يتعرش عليها من نباتات. كانت الشرفة تشرف على الجهة الخلفية للمنزل حيث المرج الواسع، صوح عصفور ليلي في مكان ما فوق الأشجار، فأخذت دون وعي منها تفتش عن المخلوق الطائر الذي يشاركها سهر الليل.

لم تعد تسمع صوح العصفور ثانية، فقدّرت أنه ابتعد.. وتمنت لو تستطيع بدورها أن تطير مبتعدة، لتعلو في السماء الخالية من الغيوم وتضيع نفسها بين النجوم المتلالئة. بنصف جلوس على قضيب الحديد، ارتكأت على القنطرة الصلبة، وتركت هدوء الليل الساكن يخفف من اضطراب أفكارها.

ظنت نفسها لحظة، أنها سمعت حركة داخل المنزل، لكن الغرف كلها كانت معتمة. بعد هنيهة، انجرفت إلى حلم ليلي صاحٍ حول أشياء عويصة على الفهم البشري: كم أن هذا الكون فسيح، وكم هي أهمية شخص فرد فوقه. من بعيد، وصلها صوت لا بد وأنه مألوف لها، لكن تركيزها على أفكارها منعها من أن تدركه.

لكن صوت اقدام على الشرفة جعلها تجفل. فاستفاقت مذعورة لرؤية طيف الدخيل الأسود.. واصبح قلبها في حلقها. وزاد جنون دقاته حين أدركت أن الدخيل بول.

- كيف دخلت هنا؟ ولماذا أنت هنا؟

تقدم نحوها بخطوات كسولة:

- رأيت النور، فقرعت الباب.. لكنك لم ترد، فدخلت لأتأكد أنك بخير.

استدارت ديلين ثانية إلى الليل، تشد يديها بقوة فوق السياج الحديدي.

- أنا بخير.. وبإمكانك الانصراف.

- ألم تستطيعي النوم؟

لكن هذا واضح.. ردت بنفاذ صبر:

- لا.

- ولا أنا استطعت. الحقيقة أنني لم أر النور.. بل كنت أتمشى في الخارج ورأيتك على الشرفة.. ولسوء الحظ لا يوجد شيء أتسلق عليه، لذلك استخدمت الطريقة التقليدية عبر الباب.

- ولمَ تزعج نفسك..؟ لست بحاجة لرفقتك.

- صحيح؟

وامتدت يده إلى كتفها.. لكنها بسرعة ابعدت كتفها تتجنب لمسته.. وتمنت لو أنها ارتدت الروب.. القمر الربعي، والنجوم الساطعة، أضفت لون الفضة الى بشرتها. والساعات المتأخرة لليل أصبحت أكثر إثارة. فهمسَت يائسة:

- ارجوك أن تنصرف! ماذا لو استيقظ أحد ووجدك في

غرفة نومي، في مثل هذه الساعة؟

- لا تقلقي فالجميع نائم ما عدا أنا. ومن المستحيل أن يستفيق أحد، إلا إذا أحدثت صوتاً مرتفعاً.

- إذن.. إذا لم تنصرف فسأصرخ!

ضحك بصوت منخفض:

- لا.. لن تفعلي.. فأنت لن ترغبي في أن يجدني أحد هنا و «في مثل هذه الساعة».. لماذا تعتقدين أننا الوحيدان دون نوم؟

- لست أدري.. ولست أهتم.

- أتظنني السبب هو هذا الليل الشمالي الريح الناعم؟

هذه المرة، حين لامستها يداه، امسكتا بكلتا كتفيها.. وعلقت ديلين ما بين زاوية الشرفة والجهة الخلفية لها التي أقفلها بول بسهولة. فصدر منها رجاء هامس، بينما كان كل جسدها يرتجف برد فعل ضائع:

- بول.. ارجوك أن تدعني وشأني.

- لكن هذا ليس ما تريدينه.. أنت تريدين نفس ما أريده.. حلوتي.. فلماذا المقاومة؟

ارجعت رأسها إلى الوراء لتتجنب مداعباته لعنقها من الخلف:

- لا تفعل هذا!

بسرعة وجه بول اهتمامه إلى عنقها الذي انبسط من الأمام، بينما التفت ذراعه الأخرى حول قفصها الصدري، فوق معدتها... انتشرت حرارة مثيرة خلال اطرافها وهو يشدها إلى الخلف لتلتصق به.. وأخذ يتمتم في أذنها:

- كليف ليس بالرجل اللائق بك. فلماذا لا تعترفي بهذا؟ أنت تريديني بقدر ما أريدك.

وجدت ديلين أن الضعف الغادر أخذ يستولي على أحاسيسها.. لكنها أجابت عبر ذلك الضعف بسخرية:

- إذا لم يكن هذا غرورك الرجولي.. فما هو إذن؟ أتظن أن كل ما عليك أن لا تفعل هو أن تمسك بي وتعانقني، فأوافق معك على أي شيء؟

رد بسخرية مماثلة، لكن واثقة:

- ألن تفعلي؟

واستدار بول وهو ممسك بها، ليترك زاوية عمود القنطرة يسنده.. فحاولت الاستدارة والنفاذ منه، لكنه ابعد ذراعاه قليلاً ليسمح لها فقط بالاستدارة نحوه، لكنها استغلت هذا، لتدفع بنفسها من قبضته.. فاستقام.. وتركها تبتعد قدر ما تحملها ساقيها عنه ثم مد يده، وقال:

- تعالى إلى هنا حلوتي.

احتجت بصوت أجش متهدج:

- لَمَ لا تتركني وشأني.

- لن أتركك وشأنك إلى أن تنتزعي هذا الخاتم من يدك.

دفع نفسه عن الجدار ليمسك بها، لكنها باهتياج، استدارات راكضة، وكادت تصطدم بالباب الزجاجي لغرفة النوم.. وأخذت تشد الخاتم الألماسي من يدها وانتزعته.. في ذلك الحين كانت قد أصبحت داخل غرفة النوم، لكن بول كان خلفها. ووضعت الخاتم تحت المصباح إلى جانب السرير كي يراه بوضوح:

- هاك! لقد.. لقد انتزعته!

ابتسم بكسل:

- وهنا مكانه المناسب.. أما أنت فمكانك المناسب.. هنا..

ولف جسدها المرتعش بين ذارعيه، فاسترخت على جسده بارتياح مألوف لها. وغرقا في حرارة عناق عميق.

حين تركها لتلتقط أنفاسها، تمسكت بما قاله:

- لقد انتزعت الخاتم.. وقلت أنك ستتركني وشأني لو فعلت.

حدق بها غير مصدق، وبتقطيبة غضب.

- لا يمكن أن تعني ما تقولين؟ لا يمكن أن تتوقعي مني أن اتركك وشأنك الآن.

- أنا لم أعد أضع خاتم كليف. وأعدك أن لا أضعه ثانية وأنت وعدتني بول.. ألا تحترم قولك أبداً؟

أمسك بحفنة من شعرها ليشد رأسها إلى الخلف:

- أنت لا تريدين مني أن أنصرف.. شفتاك تقولان هذا، لكن جسدك يقول لي شيئاً مختلفاً. وأعرف تماماً ما يريد هذا الجسد.. وهو يريدني.

ردت شاهقة:

- أريدك أن تنصرف.. وعدتني بهذا.

سألها بخشونة:

- ماذا تحاولين أن تفعلي بي؟

- أحاول أن أجعلك تفعل ما وعدت به.. لم يعد هناك خاتم في اصبعي.. فدعني وشأني الآن!

عيناها المعذبتين، راقبتا علامات القلق على تعابير وجهه.. وكانت تعرف أنه لو أصرّ فلن تستطيع مقاومته.. أخيراً دفعها عنه فتراجعت متعثرة إلى السرير.

- سأنصرف.. هذه المرة سأنصرف. لكن هذا ليس ما تريدينه حقاً.. ولن تجعليني أصدق العكس. والشكر لك، لأن كلانا سيمضي ليلة عذاب يائسة لوحده، بينما كان يمكن لنا أن نمضيها.. معاً.. سأخرج.. ليلة سيئة لك!

وصفق الباب وراءه.

انفجر الحزن الذي حاولت ديلين كبحه، فوق الوسادة مع نحيب. كانت قد اقسمت أن لا تبكي لأجله ثانية.. لكنها لم تستطع شيئاً لمنع الدموع. حين انتهت من البكاء، ولا تدري كم امضت من الوقت باكية، أحست بألم حاد يجتاحها.. واستلقت هكذا تتألم جسدياً وعاطفياً..

أحست وهي مستلقية تفكر، أن العاطفة التي تكنها لكليف لم تكن النوع الصحيح أبداً. فهي كانت تحتاجه كصديق، وهكذا قبلت خاتمه.. لكن هذا بالضبط نفس السبب الذي لن تستطيع لأجله القبول به كحبيب. وقد يمر بها وقت طويل جداً قبل أن تتمكن من قبول أي رجل لهذا الدور.. وكل هذا بسبب بول. لقد أخذ منها الكثير.. حتى أن ما تركه لها كان ضئيلاً لا يستاهل العطاء.

لذلك.. لم يعد هناك داعٍ لمتابعة مهزلة الخطوبة هذه. ستعيد الخاتم إلى كليف في الصباح.. وهذا يعني بعد ساعتين على الأكثر.. كما لم يعد هناك سبب لبقاءها هنا. فالبقاء برفقة بول ما هو الا دعوة للكارثة أن تحلّ. ولن تستطيع المخاطرة.

مرة أخرى، خرجت من السرير.. لكن هذه المرة لتسحب حقائبها الفارغة من الخزانة، وتبدأ بتفريغ الأدراج والتعليقات وتضعها في الحقائب.. ولن تترك لأحد أي مجال في إقناعها أن تخرج ملابسها مرة أخرى منها.. وخاصة بول.

حقائبها كانت موضبة حاضرة قرب الباب.. والتفتت لتأخذ الخاتم من قرب السرير.. وكان كليف في طريقه إلى الأسفل في منتصف السلم حين أدركته.. فنادته لينتظر:

- كليف!

- استيقظت باكراً هذا الصباح.. وأنت حقاً مرتدية ثيابك. أتخططين للذهاب إلى مكان ما؟

- أجل.. خذ..

ووضعت الخاتم في راحة يده. فحدق به وعبوسه يزداد:

- ما هذا؟

- لا استطيع الزواج منك كليف.. أدركت هذه الليلة الفائتة. لذا أعيد اليك خاتمك.

- أهذا ما أبقاك ساهرة طوال الليل؟

- تقريباً.. وأنا آسفة كليف.. ما كان عليّ أصلاً أن اقبل خاتمك.. وما كان يجب أن أدعك تقنعني بالبقاء بعد أن اكتشفت أن بول أخاك.

- لا يهمني أخي.. اردتك الاحتفاظ به لأنني أحبك.

اتسعت عيناها الزرقاء باضطراب:

- لم أكن أقصد أن أؤلمك كليف. أرجوك صدقني.. كنت طيباً معي، وأتمنى لو أن الأمور كانت مختلفة.. وأنا أعرف الألم، ولا أريدك أن تتألم.

نظر كليف إلى الخاتم في يده وهو يتنفس عميقاً:

- ما تحاولين قوله بلطف.. إنك لا تحبيني.. أليس كذلك؟

- ليس كما يجب أن أحبك. ليس كما تستحق. وأنا آسفة.

- ألا يزال بول هو السبب؟

- لم أكن أرغب في أن يكون.

- لا استطيع ادعاء الدهشة.

- أتمنى لو كنا نعرف قبل المجيء إلى هنا.

لف ذراعه على كتفها:

- لو عرفنا، لما جئنا إلى هنا، ولكنا دائماً نتساءل هل تغلبت على محنتك أم لا.. لكننا الآن نعرف بالتأكيد أنك لم تتخلصي من تأثيره. أيعرف بول بهذا؟

- أجل.. لكن إعادة الخاتم لا يغير شيئاً بالنسبة لبول.

- وماذا ستفعلي بالتالي؟

- أريد الرحيل، اليوم.. هذا الصباح كليف..

التفت إليها وهما يسيران جنباً إلى جنب وذراعه حول كتفيها:

- لكنك لست مضطرة للذهاب إلى عملك قبل يوم الاثنين.. ولا سبب يجبرك على العودة.

- بلى.. هناك سبب.. نحن لم نعد مخطوبان. ولا أستطيع البقاء لأسباب مزيفة كليف.

- أنت ضيفتي.. وستبقين هنا كصديقة بدلاً من خطيبة.

- لن استطيع البقاء كليف.. ليس بوجود بول.

تنهد:

- لا.. لا اعتقد هذا.

- لا داعي لأن تقطع إجازتك وتعود معي.. أوصلني فقط إلى أقرب محطة باصات.

- لا.. جئت بك إلى هنا.. وسأعيدك.

- كل حقائبي جاهزة. وهي قرب باب غرفتي.

نظر إليها مفكراً:

- ألن تودعي بول؟ أيعرف أنك راحلة؟

- لا.. ولا أريد رؤيته.. فقد تودعنا منذ ستة أشهر. ولا يهمني إذا أعجبه هذا أم لا. فهذا ما أنا مصممة عليه.

ابتسم بحرارة:

- هناك شيء واحد. بالرغم من فسخ خطوبتنا، أريد أن أراك كما في السابق.. فأنا أحب أن أكون معك، ولا أريد أن يتوقف هذا.

- حين أعود إلى لندن.. سأطلب من الشركة نقلي.

- إلى أين؟

- لست أهتم، طالما أصبح خارج لندن.

- لا.. لن أقف مكتوف اليدين وأنت تدمرين نفسك.. ولا تعجبني فكرة أن تكوني لوحدك.

- ألا ترى يا كليف أن آخر مرة ساعدتني فيها جعلتني أعرف أنني لن أستطيع الخلاص؟. هذه المرة سأجرب طريقتي.. فلن أستطيع الاعتماد عليك إلى الأبد.

- صحيح لكن.. ستتحدث فيما بعد.. سأنزل لك الحقائب إلى السيارة بينما تتناولين بعض العصير والقهوة.

- حسناً.. كما أنني أريد توديع أمك.. واشرح لها الأمر.

راقبته ديلين وهو يصعد السلم.. متذكرة ما قاله لها بول عنه: كليف سيتغلب بسرعة على فقدانك فهو دائماً يحتفظ بشيء من الحب للشخص التالي.. ويجب عليها أن تتعلم منه كيف يفعل هذا:

دخلت غرفة الطعام لتجد سوزان هناك، وعاجلتها بالقول:

- هاي.. أنت مستيقظة باكراً هذا الصباح! أتودين شرب القهوة؟

- أجل شكراً لك.. في الواقع كليف سيعيدني إلى لندن. فأنا راحلة هذا الصباح.

- فجأة هكذا؟ ظننتك ستبقين حتى نهاية الأسبوع.

- تغييرت الخطط.. لقد اعدت خاتم الخطوبة لكليف.

بقيت سوزان مسيطرة على أعصابها تحاول استيعاب ما تسمع:

- متى حدث هذا؟

- هذا الصباح.. حدّثته منذ دقائق.

- وأين هو الآن؟

- يضع حقائبي في السيارة.

- وماذا قال بول؟

- لا يعرف برحيلي.

وأخذت فنجان القهوة الذي صبته سوزان.

- لا يعلم.. ألن تودعيه؟

- لا.. ولست أرى سبباً.. فأنا لم أخذ أياً منهما.. وكلاهما يعرف هذا.. طلب كليف أن أحضّر له بعض القهوة والعصير.

دخل كليف غرفة الطعام:

- لم أتأخر.. هه؟ أهذه قهوتي.

ردت أمه:

- أجل.. قالت لي ديلين لتوها أنها راحلة. فهل سترحلان دون طعام؟

- سنأكل شيئاً على الطريق.

- هراء! هناك بعض الأجبان والحلوى في المطبخ... وستأكلان منها قبل أن ترحلا.

احتجت ديلين:

- لكنني لست جائعة.. حقاً.

تدخل كليف:

- لا فائدة من الجدال معها. فستنفذ ما تريد.. هكذا هي دوماً.

حين جلسا جنباً إلى جنب للفطار، وضعت له كوب العصير أمامه، وأخذت تشرب كوبها.

في الفناء الخارجي أمسك كليف بذراعها يقودها إلى السيارة.. كانت قد ودعت سوزان وداعاً مؤثراً.. وصوت ماء النافورة في البركة الصغيرة أمام المنزل ذكرها بالدموع... وتركها كليف ليفتح لها الباب.

- ما هذه الرسالة كليف؟

جاء صوت بول متساءلاً بحدة.. فاستدارت ديلين لتراه يخرج من الشرفة السفلى نحو الفناء ويتقدم إليهما.. وفي يده ورقة، قفز استنتاج صائب إلى رأسها فجأة.. فالتفتت إلى كليف:

- كيف استطعت فعل هذا؟

لا بد أنه ترك الرسالة لأخيه كي يعرف أنها راحلة. وتابع بول كلامه:

- جاءت السيدة كارلستون إلى الاسطبل بهذه الرسالة من أمي تقول أن ديلين راحلة.

إذن سوزان أرسلت الرسالة.. وليس كليف، على أي حال لقد حصل الضرر. فعينا بول الشرستان كانتا تضيقان نحوها، ولونهما يصبح بلون سحاب العاصفة.. لكنها واجهته:

- هذا صحيح.. أنا راحلة.

- دون أن أعرف؟ دون وداع حتى؟

- وكم من المرات يجب أن نتودع؟ أعدت الخاتم لكليف.. كما قلت لك.

- قلت لي أشياء كثيرة.. وتصرفاتك قالت لي أكثر.. وأنت لن ترحلي ديلين.

استدارت لتصعد إلى مقعد السيارة:

- دعني وشأني بول.. دعني أرحل!

أمسكت يده ذراعها وهي في الداخل:

- ليس هذه المرة.. لن أتركك ترحلي قبل أن نتحدث بالأمر.

- لا!

شدت ذراعها من قبضته، والتفتت إلى كليف متوسلة:

- كليف.. أرجوك.. أريد الرحيل.

لم يترك بول مجالاً لأخيه أن يرد:

- لن تذهبي إلى أي مكان قبل أن أسمح لك. وكليف يعلم أن كلمة واحدة مني، تجعل كل مخارج هذه الأرض محروسة برجل مسلح أو أكثر، وخلال دقائق.. ولن تستطيعي مغادرة أراضي «ميغان غلين» دون أن أوقفك.. وستتحدثين معي.

رد كليف بهدوء:

- إنه محق ديلين.

نظرت إلى بول نظرة ازدراء، لتخفي الألم في داخلها.

- يبدو لي أن لا خيار آخر أمامي..

قادها إلى غرفة الجلوس الصغيرة وأقفل الباب.. ثم أدارها كي تنظر إليه وسأل:

- لماذا أنت ذاهبة؟

- لأن لا سبب يوجب بقائي.

- لكنني أريدك أن تبقي. أليس هذا سبب كافي؟

- ليس بالنسبة لي.

الرد أكسبها هزة قوية من يديه.

- ألا يكفي؟ سلبتني نصف عقلي ولا يكفي؟ ألم أوضح لك «ما يكفي» كم أريدك؟ لم أفعل شيئاً مؤخراً سوى التفكير

بك.. ليلاً نهاراً..

قاطعت كلماته بغضب حاد:

- توقف عن هذا! مرت ستة أشهر بول! لم تفكر بي منذ ستة أشهر! حتى ولا مخابرة هاتفية، أو بطاقة بريدية! فلا تحاول أن تقنعني أنك كنت معقد الأعصاب طوال هذه المدة! أنت لم تحاول الاتصال بي مطلقاً!

صاح بها بأعلى صوته:

- لا.. لم أفعل! أنا لست معتاداً على التوسل إلى امرأة سعياً إلى حبها!

ردت بصوت أكثر حدة من صوته:

- أنا واثقة أنك لست مضطراً لهذا فلديك الكثيرات بانتظار إشارة من اصبعك.. فاتركني وشأني إذن!

- لكنني أريدك!

- لأكون ماذا؟ صديقة؟ عشيقة؟ لن تستطيع التقرير ماذا؟ أليس كذلك؟ ولو بقيت كم سيمضي من وقت قبل أن تطلب مني أن نعود صديقين كما كنا؟ ثلاثة أيام؟ أربعة؟

- أصدقاء؟ بل أريد زوجة أكثر من أن تكون حبيبة.

أريد من تكون إلى جانبي.. وليس فقط بين ذراعي!

كلمة واحدة رنت في أذنها لتشغل كل غضبها والمها.. كانت كالشعاع المتوهج.. تلمع لتنير لها الطريق عبر العتمة

التي كانت مخيمة على قلبها وعقلها.. وحدقت به.. ملئة بالخوف.. ومليئة بالأمل:

- زوجة لك؟

- أجل.. زوجة لي!.

- أنت.. لم تقل.. شيئاً من هذا قبلاً.

همسها كهمس خائف ينتظر ضربة الصاعقة التي ومضت أمامه...

- صحيح.. لم أذكر هذا من قبل.. كنت أظن الأمر مسلّم به.

بصرخة حبور باكية شاهقة، لفت ديلين ذراعيها حول عنقه.. وعضت على شفتها، تريد أن تضحك، أن تبكي، وفي نفس الوقت.

- حبيبتي؟

أمسك بوجهها بين يديه ورفعه نحوه ليرى بوضوح السعادة تتدفق من عينيها.

- ماذا كنت تظنين أنني أعدك؟ أحبك. وبكل تأكيد أريدك زوجة لي.

اختنقت بالضحك وبعبارات الفرح:

- بكل تأكيد بقبول! حين طلبت مني المجيء معك إلى المزرعة ورفضت.. ظننتك تريدني.. كمجرد حبيبة.

- بل اردتك أن تقابلي أمي و أن ترى بيتنا، حيث سيعيش أولادنا.. والمزرعة.. أردت لنا بعض الوقت لنعرف بعضنا أكثر.

قالت بأنفاس متهدجة:

- وأنا التي ظننت أنك تريد مني علاقة عابرة.. وكدت أقبل.. كنت سأقبل لو طلبت مني مرة أخرى لأنني أحبك كثيراً ولن أهتم.

- تصوري احساسي حين اقترحت أن نعرف بعضنا أكثر وقلت لي أنك لا تريدين معرفتي؟ بدوت يومها غير صالحة للأمومة.. على الأقل أمومة أولادي.

- لكنك اقترحت أن نكون صديقان بدلاً من حبيبان.. ظننتك تخليت عني بسهولة.. وإنك سئمت مني.

- اسأم منك؟ سيكون ذلك من المستحيلات.!

لف ذراعاه حولها بجوع عميق، واحتواها باشتياق اشعل قلبها من جديد.

* * *